

مكتبة دائرة المعارف الإسلامية

②

الإنسان

بقلم
ج. س. كولان
g. s. colan

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية
إبراهيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت — القاهرة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقية (كتالان)

تليفون ٢٥٧٤٧٠ ٢٢٧٥٣٧

TELEX No 22865 K.T.L

LE BEIRUT

دار الكتاب المصري

القاهرة ع.م.ع

٣٢ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦

ت ٧٤٤١٦٨ / ٧٥٤٣٠١ - برقية (كتامصر)

TELEX No 2336 CAIRO

A.T.T 134 K.T.M.

الطبعة الاولى

١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الأندلس اسم حبيب ما ذكره عربي أو مسلم إلا
فاضت نفسه حشرات على ضياع ذلك الفردوس
المفقود . أجل كان فردوساً أضاعه التحاسد والتباغض
وتفرّق الكلمة وتقاتل الملوك والأمراء على متاع زائل
ونعيم خلّاب انتهى بالبغضاء الى سراب ، ولو توحدت
كلمتهم واجتمع شملهم لكان للإسلام شاو بعيد وشأن
غير شأنه اليوم . ولعل ما يعزينا عن فقد اللجنة التي
تعهدوا المسلمون في رياض الاندلس وغياضه أن المجد
الباذخ الذي أقاموه فيه ظل خالداً كما أنه أثر في الحضارة
الانسانية أثراً عظيماً لا ينكره منصف . فقد كان

الاندلس منارة للحضارة والعلوم والفنون والآداب ،
وكان طلاب العلم من جميع انحاء العالم يتقاطرون
على جامعة قرطبة ينهلون من معينها الفياض ،
وحسب الأندلس أنه أنجب من العظماء أعياناً في كل
باب من أبواب المعرفة ، وأبدع في الفنون آيات
وروائع لا تزال باقية تطاول الزمن .

ويطيب للجنة ترجمة دائرة المعارف أن تصدر الكتاب
الثاني من هذه السلسلة عن الأندلس ، وقد كتبه أئمة
من المستشرقين أمثال تسيبولد وليفي پرقنسال وتوريس
بالباس و ج . س . كولان .

ولد تسيبولد سنة ١٨٥٩ وتوفي ١٩٢١ ، وتخرج في
جامعة توبنجن على سوسان ، وكان يتقن العربية
والفارسية والسريانية . واشهر آثاره انه عاون جويدي
في وضع فهرس كتاب الأغاني للأصفهاني ، كما
صنف معجماً لاتينياً عربياً ، وفهرساً للمخطوطات
العربية في مكتبة جامعة توبنجن . وله بحوث في
الإدريسي ، والمفردات العربية ، وأسبانيا العربية ،

والكندي والبلاذري والطبري .

وولد ليقي بروقنسال سنة ١٨٩٤ وتوفي سنة ١٩٥٦ ، وكانت ولادته في الجزائر ، وتقلب في مناصب كثيرة ، وأصبح متخصصاً في الشؤون الاسلامية وخاصة المغرب والجزائر . وفي سنة ١٩٢٨ انتدبته كلية الآداب بالجزائر أستاذاً لتاريخ العرب والحضارة فقسم وقته بين الرباط والجزائر ، كما تولى في الوقت نفسه التدريس بالسوربون في معهد الدراسات الاسلامية وكان موضوعه تاريخ العرب وكتاباتهم . وفي سنة ١٩٢٨ دعتة جامعة القاهرة أستاذاً زائراً وعيّنته عضواً في اللجنة المكلفة بتحقيق كتاب الذخيرة لابن بسّام . وكلفته الحكومة الفرنسية سنة ١٩٤٤ بمهام خطيرة بين لندن والقاهرة والقدس ودمشق . ثم عين أستاذاً للعربية والحضارة الاسلامية بجامعة باريس ووكيلاً لمعهد الدراسات السامية في هذه الجامعة .

ولم يكتف ليقي بالتدريس بل تولى أيضاً منصب مدير المطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الاسلامية حتى

سنة ١٩٣٩ ، وأصدر مجلة Arabica للدراسات العربية . وقد عدّ هذا المستشرق الكبير الحجة الأولى في المغرب في تاريخ الأندلس ، وأتم في دائرة المعارف الإسلامية ما بدأه سلفه تسيبولد .

ولليقي بروفنسال دراسات وبحوث تعرّ على الإحصاء معظمها في المغرب والأندلس ، وقد وضع فهرساً للمخطوطات العربية في الرباط ، والجزء الثالث من المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال . ومن كتبه المشهورة : أخبار أولياء المغرب ، ومؤرخو الشرفاء ، ومختارات من مؤرخي العرب في المغرب ، وأهل المغرب وماضيها ، وغرناطة المسلمة ، وتحقيق كتاب صفة جزيرة الأندلس لعبد المنعم الحميري ، وتاريخ أسبانيا المسلمة ، وغير ذلك من الكتب والبحوث الممتازة في كثير من الموضوعات الأندلسية .

أما تورييس بالباس فقد ولد بمديرية سنة ١٨٨٨ وتوفي سنة ١٩٦٠ ، وتخرج في كلية الفن المعماري في جامعته ، وأقيم مهندساً لقصر الحمراء في غرناطة ،

والمصطلحات المغربية وأسماء الصنّاع والتجّار ،
وعربية غرناطة في القرن الخامس عشر ، ونشر بمعاونة
ليثي بروقنسال : حياة المغرب الفكرية ، والبيان
المغرب لابن عذارى ، وله ايضاً معجم جيب أسباني
عربي ألماني ، وتسمية عريسة غربية لشجرة
الزيتون ، ومشروع معاهدة بين مغاربة قصبة الرباط
وملك أسبانيا سنة ١٦٣١ م .

ولا ننسى أن نذكر فنشكر المرحوم الاستاذ العلامة
محمد مسعود على خدماته التي لا تنسى للجنة ، فقد
كان يسهر معنا الليالي في مراجعة ترجمة المواد الأندلسية
والفلكية التي وردت في الدائرة والتعليق عليها ، رحمه
الله رحمة واسعة على جليل خدماته للتحقيق والعلم
واللغة العربية التي كان من أشهر الغيورين عليها ،
وما من أديب من أدباء الأربعينات يمكن أن ينسى
المساجلات المثيرة التي كانت تدور بينه وبين شيخ
العروبة أحمد زكي باشا .

وبعد فاننا إذ نصدر هذا الكتيب النفيس عن

واستأذاً لتاريخ الفن المعماري في جامعة مدريد ، ثم
مديراً لمتحف معهد بلنسية ، وانتخب عضواً في مجمع
التاريخ وفي معهد آسن بالأثيوس ، وكان بالبأس الخبير
الحجة في تاريخ الفن الأندلسي .

ومن أهم آثاره : المدن الإسلامية في أسبانيا ، كما
كتب في سلسلة الفن الأسباني : الفن العربي في
أسبانيا في عهد الموحدين ، ومملكة غرناطة ،
والمغاربة . وله أيضاً : قصر الحمراء وجنة العريف ،
ومسجد قرطبة وخرائب الزهراء ، والمدن الأسبانية
الإسلامية ، وله أيضاً بحث في العمارة الأسبانية
الإسلامية نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات
الإسلامية .

وأما كولان فقد ولد سنة ١٨٩٣ وأقام في شمالي
أفريقية وانصرف الى دراسة هذه الربوع من حيث
التاريخ والعادات واللغات وغير ذلك .

وله آثار كثيرة منها اللهجات العربية ،

الأندلس الحبيب نرجو أن يكون حافظاً لنشر مكتبة
شاملة للكتب والدراسات والمخطوطات الأندلسية ،
ونتطلع إلى ذلك اليوم الذي يتم فيه تحقيق هذا الأمل
المنشود والرغبة الجليلة .

ابراهيم زكي خورشيد
رئيس تحرير النسخة العربية
من دائرة المعارف الواسطية

الأندلس

« الأنْدُلُس » : الاسم العربي لشبه جزيرة
إيبيريا ، كان أول ظهوره عند العرب ، وأصله
مشوب ببعض الغموض شأنه في ذلك شأن الاسمين
القديمين : إيبيريا عند اليونان وأسبانيا عند
الرومان . ويجدر بنا ألا نحفل كثيراً بالاشتقاق الذي
ذهب إليه العرب بإرجاع اللفظ إلى أسماء الأجداد
الأول وقولهم إن البلاد سميت باسم أندلس بن طوبال
ابن يافث . وقد تكون هناك صلة بين هذا الاسم وبين
اسم القبيلة الجرمانية « القندال » ، وفي هذه الحالة

يفترض أنه مشتق من «فنداليشيا» Wandalicia ،
وربما كانت صيغة فنداليشيا تطلق على إقليم بتيقا
Baetica القديم الذي احتله الفندال ما يقرب من
عشرين سنة (٤١١ - ٤٢٩ م) أو على ثغر ترادكتا
Traducta الذي عبر منه الفندال الى إفريقية . ويقول
بعض الكتاب العرب إنه عين البلد الذي عرف فيما بعد
باسم القائد المغربي طريف ، ولكن من المرجح أن
تكون ترادكتا هي الجزيرة الخصراء Algeciras ،
ويكون الفاتحون من العرب والبربر وفقاً لهذه النظرية
قد أطلقوا اسم المدينة الصغيرة أو الأقليم على المنطقة
التي عرفها الرومان والقوط باسم « بتيقا » ثم على شبه
الجزيرة بأسرها التي سرعان ما دانت لهم بما فيها من
ولايات فرنسا الجنوبية ، وهي : سبتانيا أي من جاليا
الأربونية الى نهر الرون . ولما اخذ النفوذ العربي في
شبه الجزيرة بالاضمحلال البطيء وبدأ الأسبان
يسترجعون البلاد في عهد پلاي Pelayo (من عام
٧١٨) واستمروا في الكفاح أكثر من ثمانية قرون ،

فقد اسم الأندلس - الذي كان يطلق على مساحة كبيرة من الأرض - مدلوله بالتدريج . ولبثت الأقاليم الجنوبية التي ظلت في حوزة العرب تعرف به من وقت الى آخر ، ثم لم يعد يُعرف به بعد ذلك سوى إقليم صغير هو مملكة غرناطة ، كما أن نصارى أشتور الشمالية كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلاً تاماً ، وكانوا يطلقون على الجزء العربي الجنوبي الاسم القديم إسبانيا Hispania أو إسبانيا Spania ، أما موطنهم الشمالي فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل

أشتورش Asturias وليون Léon وقشتالة Castille وأرغون Aragon . . إلخ ، وهذا يطابق ما رواه الأدريسي ، ص ١٧٤

وقد أخذ العرب بما جاء في مصور بطلميوس المضطرب البعيد عن الدقة ، ولم يكن من السهل عليهم التحقق من الحدود الخارجية التي رسمها للبلاد المختلفة ، ولذلك كثيراً ما وصفوا الأندلس بأنها ذات شكل موزن على مثال المثلث ، أركانه PuntaMarroqui

طرف مراكش وجزيرة طريف على بحر الزقاق
« كات إكسوخين » باليونانية (مضيق جبل طارق) -
في الجنوب ، ورأس الطرف Finistère في الشمال
الغربي ورأس كريوش Creus وTher Vendres
(Fanum Veneris - هيكل الزهرة) في الشمال
الشرقي . ويعتبر أحياناً الشاطئ بأكمله من جزيرة
طريف إلى كريوش (المراكشي : المعجب ص ٤) أو
إلى طرُكونة وبرشلونة الحد الجنوبي ، بينما
سلسلة جبال البرقات - التي يزعم أنها تسير من الجنوب
إلى الشمال ورسمت كذلك في المصورات - تعتبر الحد
الشرقي .

ثم إن العرب كانوا على صواب كثير عندما أطلقوا
فيما بعد اسم شرق الأندلس على الجزء الذي عرف
بعدئذ بمملكتي بلنسية ومرسية ، وكثيراً ما قالوا إن الحد
الغربي على المحيط الأطلسي يبدأ من جزيرة طريف
وينتهي بطرف القديس فنان أو طرف رقة Cabo de
roca بالقرب من لشبونة . وقد أطلقوا على المحيط

الأطلسي اسم بحر الظلمة أو الظلمات والبحر المظلم والبحر المحيط الأعظم والأوقيانوس والقاموس والبحر الغربي تمييزاً له عن البحر الشرقي أو إلبرومي والشامي والمتوسط . والحد الشمالي يبدأ من طرف رقة ويدور حول ركن جليقية ويصل الى جبال البرتات بالقرب من فونترابي Fuenterrabia والبرتات تعرف أيضاً بجبل البرتات أو بالجبل الحاجز الفاصل بين الأندلس والافرنجة ، كما تعرف سلسلة جبال قشتالة باسم جبل الشارات Sierra وسلسلة جبال سييرا نيقادا Sierra nevada بجبل الثلج أو جبل شلير .

أما فيما يختص بأوصاف الأندلس والمصورات التي عملت عنها ونشرت مثل مصورات شبرور Spruner ومنكه Menke (ج ٢ ، ١٨٨) ودرويسن عام ١٨٩٤ م ، والمصورات الموجودة في Der islam im Morgen . und: August Müller Abendland

ج ٢ وخاصة في

The Moors in Spain : Poole Stanley Lane

، ج ٢ ، طبعة ١٨٨٧ فكلها مع الأسف بعيدة عن
الدقة مليئة بالأخطاء التي وصلتنا منذ أيام الغزيري
Casiri وكوند Conde وصوصه Sousa وجوبير
jaubert وكايانكوس Gayangos وهامر Hammer
ومهرن Mehren وغيرهم . ولم يتناول دوزي الجانب
الجغرافي من الأندلس ولم يتحرر هذا المؤرخ الناقد
العظيم الدقة التامة في تحقيق الأسماء الخاطئة والمحرفة
في القسم الخاص بالأندلس من كتاب الإدريسي (نزهة
المشتاق في اختراق الآفاق) . وقد نشر النص العربي
مع ترجمته الفرنسية بعنوان

Description de L'Afrique et de L'Espagne par idrisi

، وعلق عليه وذيل به بالخواشي دوزي وده غويه (ليدن
١٨٨٦) ، وربما كانت هذه الأخطاء راجعة إلى نسخة
الإدريسي الأصلية . ونحن إذا صححنا التفاصيل
وقمنا بتحقيق الأسماء والمواقع المشتقة في مؤلفات

دوزي وفي مصنفات سافدرا وسيمونيه وإكويلاز Eguilaz وقديرة Codera وباسيه فإننا في السواقع لا نكون قد سرنا إلا خطوات قليلة في سبيل تأليف كتاب علمي في جغرافية الأندلس . وعلى ذلك فمن الضروري أن نجمع كل الملاحظات التي كتبت في هذا الموضوع المتشعب من جميع المصادر التي وصلت إلينا سواء أكانت مطبوعة أم غير مطبوعة مما صنفه العرب من مؤرخين وجغرافيين ، ومن كتب التراجم ودواوين الشعر ، ثم نرتب هذا كله ونوازن بعضه ببعض ونضعه تحت محك النقد والتحليل ونتخذ منه نواة لوصف جغرافي حديث للأندلس ، وأساساً لإعداد مصورات جغرافية جديدة . ولسنا نستطيع أن نستعين بالتحقيقات البعيدة عن العلم والنقد التي قام بها جماعة من العلماء تبدأ بالغزيري Casiri وكوند Conde وغيرهما وتنتهي بهامر ومهرن ، وحسبنا دراسة المجموعة التي لم تمحص ، والتي تتكون من ٨٣٣ اسماً من أسماء الأماكن في شبه جزيرة إيبيريا في صيغ

مضللة محرفة، وهي المجموعة التي ضم شتاتها هامر
من غير نقد أو اختيار بما عرف عنه من الجنوح إلى
تأليف المطولات ونقلها من الغزيري وكوند وجوبير
Jaubret وكايانكوس Gayangos وضيع سدى أربعاً
وسبعين صفحة من مجلة Sitzungsberichte der Wiener
Akademie ، ١٨٥٤ م .

وإذا انتقلنا إلى التاريخ فإننا نجد العالم العظيم
دوزي قد نبذ ظهرياً جميع مؤلفات كوند وغيره قبل
تصنيف كتابه النفيس Histoire des musulmans
d'Espagne واستعان بالمصادر العربية بعد أن حققها
ونشرها ، ومع ذلك فعلينا أن نفتح صفحة جديدة في
البحث الجغرافي قبل أن نتمكن من تصنيف كتاب
علمي في وصف الأندلس ، وقد أوضحت ببعض
الأمثلة الطريقة التي يجب أن تتبع ، وهي تشمل من
غير شك الدراسة المقارنة لمصادر القرون الوسطى
لاتينية وأسبانية من غير أن تغفل المصنفات القديمة ،
وبينت كيف نستخرج النتائج من المصادر العربية ،

وكيف نستعين بهذه النتائج في تصحيح اسماء الأماكن القديمة وتحديد مواقعها .

وإبان استعادة الأسبان للأراضي التي كانت عام ١٨٤٠ في حوزة العرب ، وبخاصة بعد الاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢ م ذهب الكثير من المصنفات القيمة - التي تتحدث عن التاريخ وتقويم البلدان عامة والأندلس بخاصة - ضحية التعصب الأعمى . ويجب كذلك ان تجمع المواد المتعلقة بالأندلس والمبعثرة في شمالي إفريقية وسائر بلاد المشرق ثم توضع في متناول كثير من العلماء والجغرافيين والمؤرخين لترجمتها ترجمة نقدية مصحوبة بالتعليقات المفصلة ، كما يجب أن يُدرس بهذه الطريقة كل ما وردت فيه إشارة إلى الأندلس من التراث الجغرافي والتاريخي للعرب مبتدئين بالنبد القصيرة التي كتبها ابن خردادبه عام ٨٤٦ م ، ثم بمصنفات اليعقوبي وياقوت وغيرها وبالمكتبة الجغرافية التي نشرها ده غويه من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٩٤ بنوع خاص ، وأخيراً بالمصنف الضخم الذي صنفه

أحمد المَقْرِي المغربي في دمشق من عام ١٦٢٨ إلى عام ١٦٣٠ م ، وقد جمعه من مائة مصدر عربي ، ويمكن أن يقال عنه انه دائرة معارف في موضوع الأندلس . ولا عبرة بترجمة كسنايانكوس لهذا الكتاب الحافل بالمعلومات التي تقع في مجلدين (عام ١٨٤٠ - ١٨٤٣ م) لأنها بعيدة كل البعد عن الدقة وخالية من التمحيص ، ولا يمكن التعويل عليها ، زد على ذلك أن المترجم تحاشى الصعاب بتجاهلها ، وينبغي أن تجمع كل الأسماء والاشارات الجغرافية من المعاجم العربية الضخمة الخاصة بتراجم العلماء والأنساب ، لأن غالبها يتناول عدداً كبيراً من رجالات الأندلس ، وهي تثبت ازدهار الأدب في تلك الربوع ، وأهم هذه المصنفات بلا ريب هو « المكتبة الأندلسية » (Bibliotheca Arabico Hispana : Codera) التي تضم في مجلداتها العشرة تراجم أندلسية ، ولكن المؤسف حقاً أن يتفشى في هذه المكتبة الخطأ والتحريف في أسماء الأماكن .

وسنجدمل القول في تاريخ الأندلس ، فإنه يبدأ باحتلال العرب السريع لشبه الجزيرة من عام ٩٢ هـ (٧١١ م) فصاعداً ، وقد مزجت قصة هذا الفتح بالكثير من الأساطير ، وقام به أول الأمر - أي الى عام ٧٥٥ م - عمال من قبل خلفاء بني أمية في دمشق يربو عددهم على العشرين ، ولم يكن يلبث الواحد منهم في الحكم قليلاً . وقد توغل العرب في شجاعة الى أن وصلوا الى قلب فرنسا عند مدينتي تور وپواتيه Poitiers — tours (عام ٧٣٢ م) ثم نشبت الفتنة بين عرب الشمال والجنوب وبين البربر . وفي عام ٧٥٦ م قامت إمارة قرطبة - أي الأندلس - منفصلة عن العباسيين ، على يد عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل ، وهو أمير أموي فرّ من الاضطهادات التي مزقت شمل أسرته . ومن عام ٩١٢ الى عام ٩٦١ م - أي في عهد عبد الرحمن الثالث الذي جلس على عرش الخلافة عام ٩٢٩ م - وصلت هذه الدولة الى أوج عظمتها ، ثم أخذت في التدهور السريع وخاصة بعد وفاة الأمير الموهوب

المنصور الحاجب (انظر هذه المادة) وهو أعظم ساسة الأندلس وقوادها ، بل يمكننا أن نعتبره بسمارك القرن العاشر . وفي عام ١٠٣١ م تلاشت هذه الدولة القديمة وحلت محلها دويلات قصيرة العمر حكمها أمراء يعرفون في التاريخ بملوك الطوائف ، كان أغلبهم على جانب عظيم من الثقافة . وبعد عام ١٠٨٦ م - أي بعد العام الذي انتصر فيه على النصارى يوسف بن تاشفين في واقعة الزلاقة Sacralias شمالي شرق بطليوس - اجتاحت الأندلس قوة المرابطين الغاشمة ، وهم بربر من مراكش ، ثم قضت على المرابطين في إفريقية والأندلس معاً من عام ١١٤٥ الى عام ١١٥٠ طائفة دينية وسياسية هي دولة الموحدين التي أخذت تضمحل هي الأخرى تدريجياً بعد الهزيمة التي منيت بها في واقعة العقاب Las Navas de Tolosa عام ١٢١٢ م .

وبعد عام ١٢٣٦ م انحصر سلطان العرب في اماره غرناطة المشهورة النشطة ، وبالرغم من حماية الجبال

لهذه الإمارة ، فانها اعترفت بسلطان قشتالة ، ثم سقطت عام ١٤٩٢ ، وتلا ذلك ، وبخاصة بين عامي ١٥٦٨ و ١٥٧٠ ، ثورة المورييسكو Moriscoes وفي عام ١٦٠٩ طُرد المستعربون Les Mozarabes والمُدجّنون Les Mudejares واليهود ولا يتسع المجال هنا للافاضة في هذا التاريخ الطويل ، وحسبنا أن نحيل القارئ إلى المواد الخاصة التي تبحث في شتى جوانب هذا الموضوع ، مكتفين ببيان الدول المختلفة التي حكمت الأندلس مع ذكر أسماء حواضرها :

بنو أمية وحاضرتهم قرطبة وحكموا من عام ٧٥٦ - ١٠٣١ م .

بنو عباد وحاضرتهم إشبيلية وحكموا من عام ١٠٢٣ - ١٠٩١ م .

بنو جَهَّور وحاضرتهم قرطبة وحكموا من عام ١٠٣١ - ١٠٧٠ م .

بنو حَمُود وحاضرتهم مالقة وحكموا من عام ١٠٣٥ - ١٠٥٧ م .

بنو زيري وحاضرتهم غرناطة وحكموا من عام
١٠١٥ - ١٠٩٠ م .

بنو برزال وحاضرتهم قرمونة وحكموا من عام
١٠٢٩ - ١٠٦٧ م .

بنو بكر وحاضرتهم ولّبة وحكموا من عام ١٠١١ -
١٠٥١ م .

بنو يبي وحاضرتهم لبّلة وحكموا من عام ١٠٢٣ -
١٠٥١ م .

بنو مُزّين وحاضرتهم شلب وحكموا من عام
١٠٢٨ - ١٠٥١ م .

سعيد بن هارون وابنه أحمد وحاضرتها شتّمريّة
الغرب وحكموا من عام ١٠١٦ - ١٠٥٢ م .

بنو الأفطس وحاضرتهم بطليوس وحكموا من عام
١٠٢٢ - ١٠٩٢ م .

بنو ذي النون وحاضرتهم طليطلة وحكموا من عام
١٠٣٦ - ١٠٨٥ م .

بنو عامر وحاضرتهم بلنسية وحكموا من عام
١٠٢١ - ١٠٦٥ م .

بنو هود وحاضرتهم سرقسطة وحكموا من عام
١٠٣٩ - ١١١٠ م .

بنو رزين وحاضرتهم شنتمرية الشرق أو شنتمرية
ابن رزين وحكموا من عام ١٠١١ - ١١٠٣ م .

بنو القاسم وحاضرتهم الفنت Alpuente
وحكموا من عام ١٠٢٥ - ١٠٩٢ م .

بنو صمادح وحاضرتهم المرية وحكموا من عام
١٠٤٤ - ١٠٩١ م .

(انظر البيان التاريخي الموجود في Dozy : Histoire
الذيل ، وقد أخذ هذا البيان عن ستانلي لين پول)

ولدينا عن تاريخ الأندلس ما بين عامي ٧١١ -
١١١٠ م كتاب دوزي القيم

Histoire des musulmans d'Espagne

ليدن ١٨٦١ ، الترجمة الألمانية ، لپسك ١٨٧٤ وقد
ترجمه F . de Castro إلى اللغة الأسبانية في مجلدين ،
إشبيلية - مجريط ، ١٨٧٧ - ١٨٧٨ م ، والمختصر
الذي قام به ميلر A . Müller

ويجب ان نرجع في المسائل التي كثر حولها الخلاف
والنقط التي ثار حولها الجدل الى البحوث الحديثة مثل
بحث Saaverda : Estudio sobre la invasion de los
Arabes en Espana ، مجريط ١٨٩٢ الذي يذهب فيه إلى
أنه من المحتمل أن يكون لذريق Rodrigo قد فر عقب
الوقعة التي حدثت بينه وبين البربر في اقليم البحيرة
عام ٧١١ م وقاتل قتال الشجعان في الشمال الغربي
حتى عام ٧١٣ ولقي حتفه في هذا القتال اثناء قتاله مع
موسى في وقعه Segoyuela and Tamâmes جنوبي
سلمنقة ، ويؤيد هذا الرأي الموضع المعهود لقبره
في فيزيو Vizeu في شمالي البرتغال .

أما عصر المرابطين والموحدين وعصر بني نصر
وبني الأحمر (١٢٣٢ - ١٤٩٢) في غرناطة أي المدة

ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلادين -
فيحتاجان إلى جهود مؤرخ آخر مثل دوزي يكون همه
الأول الاستفادة التامة من المراجع العربية ولا شك أننا
نرحب بالمقالات المتفرقة مثل مقالات (قديرة
Codera) لأنها تزودنا بالمواد التي يجب أن نضعها
موضع النقد والتحليل . كما أن ترجمات فانيان
Fagnan لكثير من المصنفات العربية الخاصة بتاريخ
الأندلس والمغرب تعود علينا بالفائدة الجزيلة ، وهذه
الترجمات هي :

L'histoire des Almohades d'après Abd él-Wahid

Merrakechi الجزائر ١٨٩٣ ، Chronique des

Almohades et des Hafcides attribuée à Zerkechi

قسنطينة ١٨٩٥ ،

Annales du Maghreb et de: Ibn el Athir Histoire

L'Espagne الجزائر ١٨٩٨ - ١٩٠١ ، de L'

Afrique et de L'Espagne intitulée al Bayno'l

moghrif En Nodjoum ez zahira لابن عذارى ،

ج ١ ، الجزائر ١٩٠١ ، ج ٢ ، ١٩٠٤ م ،

En Nodjoum ez zahira Extrats relatifs au
Maghreb والترجمة الأخيرة عبارة عن فقرات ترجمها
فانيان من كتاب ابي المحاسن بن تغرى بردى ،
قسنطينة ١٩٠٧ . ومن المؤسف أن أسماء الأماكن
في جميع الترجمات السالفة لم تحقق تحقيقاً كافياً .

وامتازت المرحلة الأخيرة التي دامت ٨٠٠ عام
بالنضال الشريف في سبيل استعادة الأندلس الجميلة ،
وهي دون غيرها قد أوحى إلى المؤرخين مرة إثر
المؤلفات التي تتراوح بين اندفاع العاطفة والجد
العلمي . ويجب ان تنال هذه المؤلفات نصيبها من
الاهتمام عند تدوين تاريخ نهائي لغرناطة والحمراء ،
وهذا ما فعله L.de Eguiaz Gayangos في كتابه
Resena hitsorica ed la Conquista del reino
de Granada por los Reyes Cotalicos segun los
cronistas arabes الطبعة الثانية ، غرناطة ١٨٩٤ وهو من
أحدث البحوث في هذا الموضوع . أما عن جغرافية مملكة

غرناطة الصغيرة فكتاب سيمونيه المتوفى عام ١٨٩٧ ما زال العمدة ، ولو اننا يجب أن نتناول كثيراً مما ورد في طبعته الثانية بشيء من الحسطة ونضعه موضع النقد

Descripcion del: Simonet), reino de Granada

طبعة sacada de los autores arabes مجريط ١٨٦٠، الطبعة الثانية عام ١٨٧٢ م) . وكذلك يجب أن نرجع إلى كتاب قيم آخر للمؤلف نفسه فيما يختص بتاريخ الأندلس في العهد العربي عامة

Historia de los Mozarabes : Simonet) de Espana deducida de los mejores y mas autenticos testimonios de los escritores cristianos y arabes . - مجريط ١٨٩٧ -

١٩٠٣، المجلد ١٣ في Memorias de la Real Academia .

de la Historia . الثمان والخمسون صفحة من المقدمة مضافة الى التسعمائة والست والسبعين صفحة من الأصل) .

ولا يوجد بين التواريخ التي وضعت عن البلاد والأماكن المشهورة بالأندلس سوى عدد قليل له قيمة

تاريخية مثل : Alvara Bosquejo historico:

Campaner y Fuertes de la dominacion
islamita en las Islas Baleares

(بالما ١٨٨٨ م ، وانظر عن هذا الكتاب Codera :

Estudios criticos de historia arabe espanola
Collection de Estudios arabes . ج ٧ ، سرقسطة

١٩٠٣ م ، ص ٢٤٩ - ٣٠١ ، Alfred Bel : Les Benou:

Ghanya, derniers representants de L'Empire almo
- ravis et leur lutte contre L'empire almohade

:Marianogaspar Remiro ، (١٩٠٣) بريس

سرقسطة Historia de Murcia musulmana
١٩٠٥ وغيره . وكتاب Altamira الحديث

الشامل : Historia de Espana y de la civilizacion :
espanola . ج ١ - ٣ ، برشلونة ، طبعات ١٩٠٠ ،

١٩٠٢ ، ١٩٠٦ ، وهو يتحدث عن تاريخ الأندلس
حتى عام ١٧٠٠ م وهو مفيد في بعض الأحيان ، ولو
أنه اعتمد في كلامه عن العهد العربي على مصادر

ثانوية ، ويجب أن نتناول ما جاء به في حيلة ونضعه موضع النقد . وقد اعتمد TH . Linder في الغالب على A . Müller في إلمامته الجيدة عن الأندلس Weltgesch . seit der Volkerwanderung ج ٢ ، شتوتكارت - برلين ١٩٠٢ ، ص ١٠٢ - ١٤٠) .

وينبغي لنا أن نذكر من بين المؤلفات التي نتحدث عن المصادر ما يأتي :

F. pons Ensayo bio- bibliographico sobre: Boigues los historiadores y géografos arabigo-esapnoles Gesch. arab. d. Liter

وهذا الكتاب يتحدث أيضاً عن أدباء الأندلس ولو أن تراجمه - وخاصة في المجلد الأول - غير مستوفاة في كثير من الأحيان ، ويعطينا Shack في كتابه Poesie und

kunst der Araber in Spanien und Sicilien الطبعة الثانية شتوتكارت ١٨٧٧ أحسن وصف للشعر الوافر الذي تغنى به شعراء الغزل الأندلسيون وأضرابهم من عرب المغرب وللفن المغربي الذي يتجلى في عمائرهم التي تتميز بكثرة الزخرف (نقوش على

النمط العربي ومقرنصات وزخرفة خطية) ويغلب فيها الميل الى الزخرفة على الميل الى الانشاء والبناء . وقد تعقب شاك Shack تطور العمارة مبتدئاً بالجامع الكبير بقرطبة (٧٨٦ م) ومنتھياً بالتحفة الفنية المعروفة بالحمراء . وأحسن الصور الخاصة بهذه العمائر وأحفلها بالألوان هي التي وردت في Moorish remains: Calvert, in Spain (Cordova, Sevilla Toledo, Granada) ١٩٠٦ - ١٩٠٧ . ولم تخط الأبحاث التي تتناول كيفية ومدى تأثير حضارة العرب في الأندلس على الغرب سوى بضع خطوات ، وهذا ينطبق مثلاً على المسألة التي لم تحل بعد ، وهي الخاصة بمدرسة النقلة بطليطلة والشأن الذي كان لذلك اللون الجديد من الأدب اليهودي الذي انتجه يهود الأندلس وازدهر في كنف الاسلام .

تعليقات على مادة «الأندلس»

(١) الأندلس : كلمة اعجمية جرى على الألسن
أن تلزمها الألف واللام ؛ غير أن البعض يحذفونها
وبخاصة في الشعر ومن ذلك :
سألت القوم عن أنس فقالوا
بأندلس وأندلس بعيد

وقد أصاب مؤلف المادة اذ لم يأخذ بما ذهب اليه
بعض المؤلفين العرب القدماء من أن الأندلس سميت
كذلك نسبة إلى أندلس بن طوبال بن يافث ، فقد
اعتادوا التسليم بالروايات البعيدة عن الصواب لما فيها

من طرافة تستهويهم ، ومنها قولهم : إن أندلس بن
طوبال هذا كان يصاحبه أخ له يدعى سبت بن يافث
فنزل العدو المقابلة للأندلس بالمكان المعروف الآن
باسمه وهو سبتة .

وسيجد القارئ مثل هذه الرواية في الحاشية رقم ٣
التي ستأتي بعد فيما يتعلق بأصل تسمية أسبانية ، وهو
بعيد عن موطن الصواب الذي هو عين ما أشار إليه
كاتب المادة من أن كلمة أندلس مشتقة من القندال
الذين استولوا على هذه البلاد حقبة من الزمن

وفي نفح الطيب للمقرى - وهو قريب مما عليه
إجماع المحققين الآن - : « أول من سكن الأندلس قوم
يعرفون بالأندلس ، أي القندال - بهم سمي المكان
فعرب فيما بعد بالسين ، كانوا هم الذين عمروها
وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرًا على دين التمجس ،
ثم أخذهم الله بذنوبهم ففر أكثرهم فأقفرت الأندلس
منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة
سنة » .

(٢) إيبيريا Ibérie والإيبيريون Les Ibères من اليونانية Iberi : شعب مجهول الأصل والمصدر عاصر في أسبانيا القديمة دول القلت Celtes والفينيقيين واليونان والرومان وقد انتشر في أسبانيا كلها وجنوبي فرنسا ، فالإيبيريون على هذا الحساب هم أقدم أمم غربي أوروبا . وفي تحقيقات العلماء ما يثبت أنهم من أسبانيا انتشروا في فرنسا كلها وإيطاليا وبريطانية العظمى . ومع هذا فإن اسم إيبيريا لم يشمل في فرنسا سوى الأراضي غرب نهر الرون . وقد ظهرت أمة القلت في فرنسا فاكتمحت أمامها الإيبيريين الى أسبانيا حيث اختلطت أنساب الفريقين بعضها ببعض فنشأت أمة جديدة أسميت القلتيبيريين Celtibères ، وذكر ديودورس الصقلي المؤرخ هذا الاختلاط فقال : إن القلت والإيبيريين قضوا في المحاربات ردحاً طويلاً من الزمن ثم تصالحوا وخلطوا أنسابهم فتولد منهم شعب جديد . وقد اختلف المحققون في أصل الإيبيريين وسبب دخولهم أسبانيا ، فقال بعضهم : إنهم أغاروا

عليها من الشمال والبعض الآخر إن الاعارة جاءت من الجنوب . وذهب غيرهم الى انهم انحدروا من أهل أسبانيا النازلين على ضفاف نهر إبرة (بسكون الباء والهاء وضم الراء) L'Ebre أو Ibérus . وفي آسيا على مقربة من بلاد فارس قوم يدعون بالاييريين كاييري أسبانيا سواء . ويقول فريق من العلماء إنهم لا شأن لهم بهؤلاء ، ولكن المغفور له أحمد زكي باشا ذكر في تحقيق له أن نقوداً قديمة ضربت بشارة إيبيري آسيا - وهي الذئب الأغبر - وجدت في حفائر أسبانيا وأنها الدليل على أن من هؤلاء انحدر الإيبيريون الأسبانيون على أثر هجرتهم الى أسبانيا بطريق البحر .

(٣) أشبانية : Espagne أسماها الرومان Hispania وكانت تسمى من قبلهم Hespérie أي بلاد المغرب أو المغرب . وقال المفردى في سبب تسمية أشبانيا بهذا الاسم : « إنه لما صار ملك الأندلس الى عجم رومة وملكهم أشبان بن طيطش سميت الأندلس

أشبانية ، وقد ذكر بعضهم أن اسمه أصبحان فأحيل
بلسان العجم . وقيل بل كان مولده بأصبحان فغلب
اسمها عليه . وهو الذي بنى إشبيلية . وكانت أشبانية
اسماً خالصاً لإشبيلية التي كان ينزلها أشبان ثم غلب
الاسم بعده على الأندلس كله فالعجم الآن يسمونه
أشبانية لآثار أشبان هذا فيه » . انتهى كلام المقرئ ،
ونقول إنه من قبيل كلام الذين زعموا أن الأندلس
وسبتة إنما سميتا باسمي أندلس وسبت ابني طوبال بن
يافث وهو كثير امتلأت به كتب التاريخ العربية القديمة
مثل قولهم إن إفريقية سميت كذلك باسم فاتحها
أفريقش من أمراء اليمن ، وهو قول ظاهر النسب
والبطلان لأقل تأمل وأيسر تمحيص ، وإنما سميت
إفريقية بهذا الاسم من افراغن Afraghen اسم قبيلة
بربرية نزلت حول مدينة قرطاجة بتونس فأسميت
باسمها في العصور الماضية .

(٤) بتيقا باللاتينية Baetica وبالفرنسية Bétique
: شطر أشبانيا القديمة الذي كان يخترقه النهر الكبير

Guadaluquivir ويحده من الشمال إقليم أناس Anas ومن الشرق طركونة Tarragone ومن الجنوب البحر المتوسط وبحر الظلمة (الأطلنطي) بحيث يضم في نطاقه القطر الذي كان معروفاً بأندلس وإقليم غرناطة وجزءاً من قشتالة الجديدة والبرتغال . ووصف پلیناس Pline ذلك القطر بخصب الأرض وبأنه كان على عهد الرومان ينقسم أربع دوائر قضائية في قادس وقرطبة وإستجة وإشبيلية . وكان به في ذلك العهد ١٣٥ مدينة عامرة من أشهرها إشبيلية Hispalis وطرطوشة Tartessus وقرطبة Corduba وأصطبة Astapa وقادس Gadès ومالقة Malaca وأنتقيرة Antaquera (والأسماء الافرنجية هنا مرسومة برسمها القديم) . وكان يسكن تلك المدن أقوام اتصلوا بالفينيقيين والقرطاجيين قبل أن يحتكوا بالرومان . فبتيقا هذه بحدودها الأنفة هي التي هبطها قوم القنذال المنحدرين من ألمانيا ومن ثم عزيت اليهم فأسميت قنذاليشيا - كما ذكره مدون المادة - ثم حرف هذا

الاسم على توالي الزمن الى Andalousia أي الأندلس .

(٥) الأربونية : نسبة الى أربون ، وهي إحدى مدن جنوبي فرنسا الآن فيما يلي جبال البرانس Pyrenées على مسافة ٥٥ كيلو متراً من قرقشونة Carcassonne وأصل رسمها بالفرنسية Narbonne أي نربون فحرفها العرب وكانت من منضماتهم بعد اختراقهم تلك الجبال الى أربونة . وقد وردت بهذا الرسم في معجم ياقوت الذي قال : « أربونة بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس بينها وبين قرطبة - على ما ذكره ابن الفقيّة - ألف ميل » . وهي في عهدنا الشاهد بندر مقاطعة أودة Aude وشهرتها بجودة عسلها وخمرها وبأنها مسقط رأس طائفة من قياصرة رومة .

(٦) استورتس : أوردها ياقوت الحموي في معجمه بالسين بدل الشين في موضعها ، وقال انها بضم الهمزة وأنها حصن من أعمال وادي الحجارة بالأندلس أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس ، عمره في نحر العدو .

(٧) ورد تعريب كلمة Léon في المصنفات العربية على ضربين أحدهما (لاون) وقد ذهب إليه الإدريسي وغيره ، والآخر (ليون) بمقتضى منطوقه الإفرنجي ، وإلى هذا الرسم ذهب المقرئ في مواضع شتى من كتابه نفح الطيب إذ قال في أحدها : « ومعادن الفضة بناحية إفرنجة وليون » . وكانت مملكة ليون القديمة متصلة بمملكة أشتورش ثم انفصلت منها في سنة ٩١٥ م وانضمت إلى قشتالة مرتين إحداهما في القرن الحادي عشر والأخرى في الثالث عشر .

وكانت مملكة ليون القديمة تضم ضمن حدودها من ولايات أسبانيا بحسب التقسيم الحاضر : ليون وبلد الوليد وشلمنقة وسمورة (ويقال أيضاً : زمورة) . وكلمة Léon تسمى بها أيضاً الجزيرة التي تقوم عليها مدينة قادس بجنوب أسبانيا .

(٨) كلمة Aragon عَرَّبها العرب على وجهين : الأول أرجون بالجيم ورد في نزهة المشتاق للإدريسي وغيره ، والثاني بالغين وقد ذكره المقرئ في جملة مواطن

من نفح الطيب إذ قال في أحدها : « والإقليم الخامس
يمر على طليطلة وسرقسطة وما في سمتها إلى بلاد
أرغون » غير أنه في مواطن ذكرها بالجيم وهذا يفيد أن
عرب الأندلس كانوا يجمعون بين الوجهين في رسمها ،
فاختر لنفسك ما يحلو .

ولا تخلط أرجون مدينة وإقليماً بمدينة أرجونة لمجرد
التشابه اللفظي ، فإن أرجونة بلد بناحية جيان Jaen
بالأندلس الأصيل أي بالنصف الجنوبي من أشبانيا ،
أما أرجون ففي أقصى النصف الشمالي منها إذ تتصل
حدودها الشمالية بجبال البرانس من غير فاصل .
وأرجون هو في الأصل اسم نهر ينحدر من تلك الجبال
ويصب في نهر إبرة Ibres فأسمي واديه الأعلى باسمه
الذي سرى فيما بعد على الأراضي الفسيحة والولايات
الكبيرة التي انضمت إلى هذا الوادي وتألقت منها مملكة
أرجون وامتدت من جبال البرانس شمالاً إلى جبال
كونكة Cuenca (قونكة أيضاً) جنوباً ثم إلى بلنسية
شرقاً غير أنها لم تلبث على مر الأجيال أن تجزأت إلى

ولايات ومقاطعات نذكر منها مقاطعة وشقة Huesca
ومقاطعة سرقسطة Saragosse وغيرها .

(٩) طرف القديس قنسان . Cap de St Vincent :
هكذا يسمونه في الجغرافيا الحديثة ، وكان الأشبانيون
يسمونه من قبل « طرف الغرب » Promontoire
d'Algarve بالاضافة الى ولاية أو بلاد « الغرب »
L'Algarve التي يتألف منها القسم الجنوبي من
البرتغال . فكلمة Algarve إذن كلمة عربية أصلها
الغرب بالابدال من حرف الباء حرف v . وقد كان
ملوك البرتغال - الذين أخضعوا المغرب الأقصى
(مراکش) لحكمهم عهداً ما - يتلقبون بملوك الغربين
Les rois de deux Algares يريدون بلاد الغرب
البرتغالية الأنفة الذكر وبلاد المغرب الأقصى .

وسبب تسمية طرف الغراب برأس أو طرف
القديس قنسان أن هذا القديس قتل في بلنسية في عهد
قيصر الرومان دقلطيانوس المشهور بجوره واضطهاده
المسيحية وألقت جثته في العراء كي تنهشها الضواري

وتفترسها الجوارح ولكن قيل : إن غراباً هبط فحرسها
ومنع عنها عادية هذه الحيوانات . وفي عهد الخليفة
عبد الرحمن الأول الأموي نقل أهل بلنسية الجثة الى
طرف الغرب وبنوا عليها كنيسة اشتهرت فيما بعد بكنيسة
الغراب وسمى طرف الغرب من هذا الحين برأس
القديس سان قنسان .

(١٠) Cabo de Roca بالبرتغالية و Cap de la Roche بالفرنسية : رأس على ساحل مقاطعة إشبونة
داخل في البحر الى غربها في ارتفاع ١٤٢ متراً . كان في
عهد الرومان يسمى Torium Magnum ومعناه باللغتين
البرتغالية والفرنسية رأس الصخرة أو طرفها . وقد كان
في استطاعة العرب أن يسموه في العربية بما يطابق هذا
الاسم ولكنهم آثروا تعريبه بلفظه فقالوا « طرف رُقة »
بضم الراء وفتح القاف المشددة .

(١١) اجتمعت للأقيانوس الأطلنطي - المنسوب
الى اطلنطيد ، وهو قارة قالوا إنها كانت ظاهرة على
سطحه ثم غاصت - أسماء كثيرة هي التي ذكرها محرر

المادة . ونحن نضيف اليها وصف الإكليلي - نسبة إلى الإكليل - ذكر أحمد بن ماجد الربان العربي الملقب بأسد البحر في إحدى رسائله في علم البحر سبب وصفه بالإكليلي فقال لأنه يكلل العالم .

(١٢) فونتارابي بالفرنسية Fontarabie وبالأسبانية : Fuenterrabia وباللاتينية الجديدة Fons repalus اسم مدينة عند سفح جبل جيزكي Jaizqui وعلى مقربة من مصب أحد الأنهر في خليج الإنقليشيين (خليج بسكاي أو غسقونيا) تجاه بلدة هنداى Hindaye الفرنسية ويشق ذلك الاسم باختلاف أوضاعه من كلمة Ondarralia التي تفيد في لغة البشكنس le Basque معنى « مخاضة الرمل » ذلك لأن الرمال في منطقتها تختفي وتظهر بفعل المد والجزر ، وتحمل قصورها الجليلة شارات اصحابها من الأشراف والنبلاء السابقين وبها عقد الملك لويس الرابع عشر زواجه من الأميرة ماري لويز . وفي مقالها حجر الطباعة وحجر الطواحين .

(١٣) جبال Pyrénées الفاصلة بين فرنسا وأشبانية بين البحر المتوسط وخليج الإنقليشين (بسكايه) : أسماها العرب جبال البرانس ، ووجد لها أحد محققينا اسماً آخر وهو « البرنات » بنون بعد الراء وهو خطأ صوابه البرتات بالتاء لا بالنون أي أبواب الجبال ومنافذها التي مر العرب منها لاقتحام أرض فرنسا .

وكتب مؤلف هذه المادة لتفسير معنى البرتات الجملة الآتية (Puertos) Montes des ports أي « جبال الموانئ » وفسر كلمة ports الفرنسية منها بكلمة (puertos) الأاسبانية واضعاً إياها بين قوسين . وهذه الكلمة الأاسبانية تفيد بلا نزاع معنى حلوق الجبال gorges de Montagnes وأبوابها ومنافذها التي توصل من جنبها إلى الجانب الآخر وهذا المعنى هو المراد لا الموانئ إذ لا موانئ في الجبال .

وفي التقسيم الإداري للقطر الأاسباني أيام العرب أطلق اسم « البرتات » على إقليم من أقاليمه الشمالية

يتصل بجبال البرانس في جزئها الذي يحتوي تلك
الخلوق أو المنافذ أو الأبواب .

ولجبال البرانس اسم آخر أشار اليه مؤلف المادة وهو
« الحاجز » وقد ذكره الحجاري في كتابه المسهب حيث
قال : « إن طول الأندلس من الحاجز الى إشبونة ألف
ميل » وقال : « ومسافة الحاجز أربعون ميلاً -
والصواب ٣١٢ ميلاً - وهذا عرض الأندلس عند
رأسها ولقلته سميت جزيرة وإلا فإنها ليست بجزيرة
على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة » أي
قارة أوروبا . وقال ابن سعيد : « وهنالك الحاجز
الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة وفي هذا
المكان جبل البرت - مفرد برتات - الفاصل في الحاجز
المذكور وفيه الأبواب » أي الخلوق التي مر منها عرب
الأندلس لشن الغارة على فرنسة .

(١٤) معنى كلمة Sierra في اللغة الأشبانية
« المنشار » ومعناها أيضاً الجبل أو سلسلة الجبال لأنها
تشبه في تعاقبها أسنان المنشار . وقد نقل عرب أشبانية

الى لغتهم كلمة Sierra مفرغة في قالب « شارة »
للمفرد و « شارات » للجمع . وفيما صنفوا
من كتب الجغرافيا أن جبل الشارات المسمى الآن باللغة
الفرنسية Monts des sierra هو الجبل العظيم الذي
يأخذ من ظهر مدينة سالم Medinaceli إلى أن يأتي
قرب مدينة قلمرية Coimbra في آخر الغرب أي في آخر
بلاد البرتغال . وفي التقسيم الإداري لأشبانية على
عهد العرب أطلق اسم إقليم الشارات على إقليم يتصل
بجبل الشارات وهذا الاقليم يلي اقليم بلاطه Plata
وفيه من المدن : طلبيرة Talavera ومجريط Majerit أو
Madrid والفهمين Alafmin ووادي الحجارة
Guadalajara وأقليش Uclés ووبذة Huete . وقال
الادريسي في نزهته : « جزيرة الأندلس مقسومة من
وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات فما
خلفه في جهة الجنوب يسمى أشبانية وما خلفه في جهة
الشمال يسمى قشتالة » . هذا وقمة الجبل تسمى في
اللغة الاسبانية cerro فلا تخلطها باسم الجبل في اللغة

بعينها وهو sierra كما قدمناه .

(١٥) أسمى العرب سلسلة جبال Sierra Nevada
بجبال الثلج أو جبل شُلَيْر (بضم ففتح
فسكون) الذي قال ياقوت في التعريف به : « إنه
جبل بالأندلس من أعمال البيرة Eivira لا يفارقه الثلج
شتاء ولا صيفاً » وفي وصفه قال أحد المغاربة وقد مر
به :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم
وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً إلى نار الجحيم فإنها
أخفت علينا من شلير وأرحم

وجبل الثلج هذا أو جبل شلير أعلى جبال أشبانية إذ
هو يسمو على أرفع قمة في جبال البرانس بقدر ١٥٢
متراً ولذا يراه الرائي من مدينة وهران بقطر الجزائر كما
تُرى سواحل إفريقية من أعلاه على بعد ٢٠٠ كيلو متر
أي أكثر من المسافة بين القاهرة والاسكندرية على خط
مستقيم . وتمتد سلسلته من إقليم غرناطة الى اقليم

المرية Almeria في طول ١٥٠ كيلومتراً وعرض ١٥ إلى ٣٠ كيلومتراً. ومن « ثلوجه الهطالة » - وهذا هو المعنى الدقيق لكلمة Nevada في اللغة الأسبانية - تتولد المياه التي تغذي نهر شنيل (Génil بالفرنسية و Xenil بالأسبانية) وهو النهر الذي يجري قبلي مدينة غرناطة ويسوى في نظر أهلها ألف نيل كنيل مصر ، لأن اسمه مركب مزجي من حرف (ش) الذي كان ولا يزال يعدل ١٠٠٠ بحساب الجمل عند المغاربة ثم من (نيل) وهو نيل مصر .

وأعلى قمم جبل شلير القمة المشهورة باسم Cerro Mulahacen أي قمة مولاي حسن الذي دالت دولة العرب نهائياً في الأندلس ودك ركنها وثل عرشها في عهد ابنه أبي عبد الله الذي يسميه الافرنج Boabdil آخر ملوك بني الأحمر وآخر ملوك العرب في الفردوس المفقود .

(١٦) الغزيري : هو ميخائيل الغزيري من غزير احدي قرى لبنان على مقربة من بيروت ،

مستشرق ولد في طرابلس الشام سنة ١٧١٠ م من أبوين
مارونيين وتوفي في مجريط (مدريد) يوم ١٢ مارس
سنة ١٧٩١ . وقد تلقى العلم في رومية وتخصص في
درس اللغات السامية وبرع فيها فعين مديراً لمكتبة
الاسكوريال فتوفر فيها على درس المخطوطات العربية
التي تحتويها هذه المكتبة واودع ثمرات بحوثه كتاباً
عنوانه Bibliotheca arabico hispana escurialensis
طبع بمجريط سنة ١٧٦٠ - ١٧٧٠ في مجلدين . وقد
استدرك درنبورغ Derenberg على كثير من مواد هذا
المصنف في كتاب ألفه تحت عنوان Les Manuscrits
arabes de L'Escurial وطبعه بباريس سنة ١٨٨٤

محمد مسعود

الأندلس ، أو شبه جزيرة الأندلس : مصطلح
جغرافي كان يدل في العالم الإسلامي - حتى نهاية
العصور الوسطى - على شبه جزيرة ايبيريا ، أي
اسبانيا والبرتغال الحديثتين .

أولاً : معنى التسمية الاصطلاحية للمقطع الأندلس .
ثانياً : إلمامة بجغرافيتها .
ثالثاً : معالم جغرافيتها التاريخية .
رابعاً : سكان الأندلس .
خامساً : تطورها .
سادساً : الإلمامة بتاريخ الأندلس ، ملحق الأندلس في شمالي
أفريقية .

سابعاً : الإسلام في الأندلس .
ثامناً : الفن الأندلسي .
تاسعاً : الأدب الأندلسي والثقافة الأندلسية .

أولاً - معنى التسمية الاصطلاحية للفظ الأندلس

يرتبط اسم الأندلس فرضاً باسم الوندال (الأندليش) الذين أطلقوا على بايتيكا اسم « ونداليشيا » عندما عبروا شبه جزيرة إيبيريا قبل غزوهم لشمال إفريقيا . وورد ذكر الأندلس في عهد متقدم يرجع الى مستهل عام ٩٨ هـ (٧١٦ م) على دينار مكتوب بلغتين ، والنقش اللاتيني فيه يورد لفظ « اسبانيا » مرادفاً للأندلس ، وهذا اللفظ أو صنوه « هسبانيا » كانا هما اللفظين الوحيدين اللذين استعملهما الاخباريون اللاتين الاسبان الأوائل للدلالة على شبه جزيرة ايبيريا باعتبارها كلاً واحداً أي على الأسبانيتين المسيحية والاسلامية . ومن جهة أخرى

يبدو أن استخدام الكتاب العرب لمصطلح الأندلس كان دائماً مقصوراً على أسبانيا الإسلامية مهما كانت رقعتها التي كانت تتناقص باضطراب بسبب عودة المسيحيين إلى غزوها (Reconquista) . وقد استخدم مصطلح الأندلس حتى عندما انحصرت سلطة المسلمين في شبه الجزيرة في إمارة غرناطة النصرية الضئيلة للدلالة على رقعة هذه المملكة الصغيرة وحدها . ومن جهة أخرى نجد أن الأخباريين المسلمين استخدموا مدة من الزمن أسماء (بالصيغة العربية) إشبانيا (هسبانيا - اسبانيا) وأسماء الإمارات المسيحية التي تكونت نتيجة عودة المسيحيين إلى غزو الأندلس ، وهي : ليون (Léon) وقشتالة أو قشتالة (Castile, Castilla) وبرتغال (Portugal) وأراغون (Aragon) ونبارة (Navarre)

ومن اسم الأندلس (ترد أحياناً صيغة الأندلس وبخاصة في أزجال ابن قزمان) يشتق المصطلح السلاوي « أندلسي » والمصطلح الجماعي « أهل

الأندلس » . واستبقى هذا المصطلح في الاستعمال الحديث للدلالة على المنطقة الجغرافية التي تكونت من اقليم البحر المتوسط الأدنى (المناطق الساحلية والأراضي الجبلية) المناظرة ، من الشرق الى الغرب ، للصقع الممتد من ولاية المرية Almeria الحديثة الى ولاية وُلبة Huelva والى اقليم اندلوسيا Andalusia الطبيعي (اندالوثيا بالأسبانية) ويسمى سكانه أندولوثيين Anduluces (ومفرده أندالوز) .

ثانياً - إلامة جغرافيتها

١ - الموقع الطبيعي : تقع شبه جزيرة ايبريا جنوبي غرب اوروبا ، وهي تكون كتلة جسيمة داخلية في البحر تكاد تكون خماسية الشكل وتصلها بالقارة سلسلة جبال البرانس ، أما الجوانب الباقية فتحف بها مياه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط . وهي تقع بين خطي عرض $43^{\circ} 27'$ و $35^{\circ} 59'$ شمالاً وخطي طول $9^{\circ} 30'$ و $3^{\circ} 19'$ شرقاً . ومسطحها حوالي ٢٢٩,٠٠٠ ميل مربع ، ومساحة البرتغال الحديثة أقل من خمس هذه المساحة الكلية (تبلغ مساحة اسبانيا الحديثة ١٩٥,٠٠٠ ميل مربع) .

ووقع شبه الجزيرة في الطرف الغربي من حوض البحر المتوسط مع وجود شاطئ كبير على المحيط

الأطلسي يفسر الكثير من الأحداث في تاريخها .
ويفصلها عن باقي قارة أوروبا حاجز جبال البرانس ،
ولا يفصلها عن افريقية إلا مضيق جبل طارق الذي
يحده من الشمال والجنوب رأسا طريف وسبتة ، وكان
من نتائج ذلك أن أصبح لها طابع جزري عزل الكتلة
الإيبيرية طويلاً عن مؤثرات ما وراء جبال البرانس ،
بينما تركها مفتوحة منذ أقدم العصور للمؤثرات الشرقية
من جهة طريق البحر المتوسط القديم .

وشبة الجزيرة الاسبانية من أشد أراضي أوروبا
تحديداً . والبحث العام لبُنيّتها يبين أنها تتكون أساساً
من هضبة وسطى فسيحة تشمل على الأقل نصف
المساحة الإجمالية وهي « الميزيتا » بارتفاع متوسط قدره
١٩٣٥ قدماً ، وتشمل القشتالتين : قشتالة القديمة
(Castilla la Vieja) وقشتالة الجديدة (Castilla la Nueva)
والاسترامادورة (Estramadura) . وتكتنف الميزيتا
منحدرات جبلية عالية ، وإلى الشمال سلسلة جبال
كانتريا ، وإلى الشمال الشرقي والشرق سلسلة

الجبال الايبيرية ، والى الجنوب الصفوف المتتابعة لجبال (شارات) مورينا (سلسلة الجبال الباييتيكية الدنيا) والى الغرب هضاب جليقية (غاليسيا) والبرتغال المرتفعة . وتتميز هذه الهضبة الوسطى بوجود ثلاثة اغوار جانبية عميقة وهي اغوار إِبْرَه ، والوادي الكبير ، وتاجّه الأدنى . والى الجنوب نجد أن مرتفع « مجموعة الجبال البنيبايتيكية » قد لفظ كتلة جبلية تضم الجانب الاكبر من اندولوسيا العليا ، وتكون سلسلة مختلطة من الجبال (سيّرا بالاسبانية ، وبالعربية الشارات) وأعلاها سلسلة نيفادا (جبل الشلّير ، وأعلى قممها ، مولاي حسن : ١١,٤٢٠ قدماً) .

ونتيجة لهذا التكوين الجبلي الملتوي لا يقلّ متوسط ارتفاع الأرض في شبه الجزيرة عن ١٦٠, ٢ قدماً ، فإذا أضفنا الى هذه الحقيقة ان نسبة الأراضي المنخفضة التي لا يقل ارتفاعها عن ١,٦٤٥ قدماً لا تزيد عن ٤٠ ٪ لتبينت لنا الصعوبات التي اكتنفت دائماً استغلال تربة قاحلة بوجه عام بسبب قلة سقوط الأمطار

وضعف موارد المياه من الأنهار في القسم الأكبر من البلاد .

٢ - المناخ : تتميز شبه الجزيرة بمناخ جاف معتدل بوجع عام على الرغم من التغيرات الشديدة التي تطرأ على درجة الحرارة في المناطق المرتفعة والمتوسطة الارتفاع التي هي بمنجاة من الأثر الملطف للمحيط الأطلسي أو البحر المتوسط . وفصول الشتاء هنا قارصة البرد ، أما فصول الصيف فقائظة . وتستثنى من ذلك مناطق ما دون الساحل وبخاصة منخفض أندلوسيا الفسيح المكشوف المطل على البحر .

وبالنسبة لسقوط المطر يجب التمييز بين أسبانيا الجافة وأسبانيا المطيرة . وتشمل الأخيرة ، ابتداء من الشعبة الغربية لجبال البرانس ، إقليم الباسك (البشكونش) والساحل الكانتبري والبرتغال الحديثة كلها تقريباً . أما أسبانيا الجافة التي تشغل ما يقرب من ثلثي شبه الجزيرة فان سقوط المطر هناك في جوهرة متقلب يتراوح بين متوسط سنوي قدره ٢٣ بوصة ،

وبين معدل يقل عن ١٥ بوصة . وفي كثير من الحالات
يبتل البخار الآثار المفيدة لسقوط المطر ، وهناك لا
يمكن - كما يحدث في المشرق (اقليم بلنسية
ومرسية) - علاج هذه الحالة بري الأراضي الجافة .

ويتمتع شمالي شبه الجزيرة وشمالها الغربي ، وجميع
الشاطئ المطل على المحيط الاطلسي عامة ، بطقس
معتدل نسبياً نتيجة الرطوبة وغلبة السحب وهما من
خصائص هذا الإقليم . وبالمثل نجد ان فصول
الشتاء ، في منطقة البحر المتوسط من قطلونيا وشرقي
الأندلس الى الساحل الاندلسي ، معتدلة تتميز
بسطوع الشمس وبظروف جوية صافية مشرقة .

٣ - ماؤها : إن التكوين الطبيعي للبلاد ومناخها
وطبيعة التربة التي كثيراً ما لا ينفذ فيها الماء تفسر نقص
مياه شبه الجزيرة وعدم انتظام مواردها من انهارها التي
تكاد تكون جافة دائماً في أيام القيظ عندما يبلغ البخار
ذروته . وهذه الأنهار لها نفس الخصائص التي لوديان
شمالي افريقية ، فهي تكون جافة كل الجفاف تقريباً أو

تغاديتها فجأة أمطار غزيرة تجعلها سيولاً تصاحبها آثار
وبيلة تؤدي الى تعرية الأرض وازالتها بسبب الرواسب
النهرية .

والأنهار التي تنساب تجاه الشمال والغرب ساحلية
بوجه عام لا يمتد طولها كثيراً ، وأهمها نهر منيو
(بالبرتغالية منهو) الذي يكون الحد الشمالي للبرتغال
ويصب مياهه في المحيط الأطلسي .

وهناك ثلاثة أنهار أخرى مواردنا من المياه غير
منتظمة الى حد كبير وتصرف مياه الميزيتا وتنساب ايضاً
الى المحيط الأطلسي ؛ وهي دُوَيْرُهُ Duero (بالبرتغالية
Douro) ، ونهر تاجه (Tajo بالأسبانية و Tejo
بالبرتغالية) ، ونهر آنا (Guadiana) وتكون مصباتها
الحد الجنوبي بين أسبانيا والبرتغال . وأهم نهر في شبه
الجزيرة هو الوادي الكبير Guadalquivir الذي ينبع من
إحدى المجموعات الجبلية في جنوبي شرق الميزيتا ،
وله عدة روافد تزيد في حجمه ، أهمها شنيل الذي
ينبع من سيرا نيفادا (جبل شلير) وتغذيه في الصيف

الثلوج الذائبة من تلك الكتلة الجبلية . ونهر الوادي الكبير هو النهر الوحيد في شبه الجزيرة الذي يصلح مجراه الأدنى للملاحة (في الخمسة والسبعين ميلاً الأخيرة منه) . وتصل الى الساحل الشرقي عدة وديان لها طبيعة السيول الجارفة ، وهي تنبع من حافة الميزيتا وتمتد المنطقة باحتياطي غير ثابت من الماء للري بوساطة السدود . وأهم هذه الوديان شقورة وشقر ، وهما يستخدمان اليوم لتحسين أراضي الري في بلنسية .

أما نهر إبره الذي ينبجس في اقليم الباسك (البشكونش) فانه يستمد مياهه من منحدرات جبال البرانس الجنوبية (أراغون وشقره) وأثناء تدفقه عليها تقلل المنحدرات الرفيعة التدرج من حجم امواهه في اجزائه الدنيا فيتحول الى البحر المتوسط حيث يصب بعد عبور دالٍ غريزة كبيرة الحجم .

٤ - خصائص ١٠٠ : إن التربة التحتية لشبه الجزيرة غنية خاصة بطبقات حافلة بالمعادن ، فيها الرصاص والفضة والجاديسد والنحاس والمنجنيز

والرخام .

وهي غنية أيضاً بالأملاح الطبيعية مثل نترات البوتاسيوم والمغنسيوم والسيلكات ، وتنوع النباتات تنوعاً تاماً بين أسبانيا الجافة واسبانيا المطيرة ، ففي الأولى تغلب ثلاثة أنواع من النباتات كثيراً ما ترتبط بمنطقة البحر المتوسط ، وهي : الغابات (أشجار لا تتساقط أوراقها كل عام ، وأنواع مختلفة من أشجار الصنوبر والسنديان والفلين) وسفوح الجبال (مونت باخو بالأسبانية) والسهوب (الأشجار الصغيرة Esparto) ؛ ومن جهة أخرى نجد أن الريف في اسبانيا المطيرة دائم الخضرة طوال العام نظراً لوجود الغابات والمراعي الطبيعية .

ونتيجة لهذا التنوع الطبيعي تعد أسبانيا بلداً يجتمع فيها أكبر قدر ممكن من المتناقضات ، ومن تحصيل الحاصل أن نقرر أن من المحتمل كثيراً أن تمر بلا تمهيد تقريباً من وادي نهر (Vega) وافر الخضرة الى سهب لفحته الشمس والرياح .

ثالثاً - معالم الجغرافية التاريخية للأندلس

١ - أوصاف الأندلس : إن كتب الجغرافيين العرب (مشاركة ومغاربة) التي وصلت إلينا هي عماد معلوماتنا عن الأندلس في العصور الوسطى وتطورها واستغلال مواردها الطبيعية . وهناك أولاً كتب المسالك التي نشرها دي غويه في المكتبة الجغرافية العربية (BGA) وهي لا تفرد إلا حيزاً محدوداً لأسبانيا ، وأقدمها كتب ابن خرداذبة واليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته ، وتشمل أوصافاً موجزة إيجازاً يحمل المرء على أن يفترض أن الأندلس كانت حتى القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ولاية إسلامية غير معروفة إلا قليلاً للمشرق الإسلامي . ومنذ عودة الخلافة المروانية في قرطبة يصبح التوثيق

الجغرافي للأندلس منهجياً ، وإن ظل يفتقر الى البسط في شيء كثير من التفصيل . وتعني البيانات التي اوردها الأضطخري المتوفى عام ٣٢٢ هـ - (٩٣٤ م) عن الأندلس بالزراعة والتجارة ، وتصف أربعة عشر دليلاً للسفر في داخل شبه الجزيرة . وكان معاصره ابن حوقل افضل منه حظاً ، فقد زار أسبانيا شخصياً وحصل على معلومات وثيقة مسيرة للعصر بالاستفهام ممن عندهم الخبر اليقين وهو في الطريق ، والحق ان صورة الأندلس التي كشف عنها قلم هذا الكاتب المناصر للفاطميين تتسم بالتحيز في كثير جداً من الأحوال ، ومع ذلك فهي أول وصف معقول وكامل مترابط في آن واحد وصل إلينا عن مملكة قرطبة . وجدير بالاهتمام كذلك البيان الذي ساقه المقدسي الفلسطيني (نهاية القرن العاشر) ، فهو يسوق أقوالاً هامة من الواضح أنها تقوم على ما استقاه من مصدر وثيق - على الرغم من أنه هو نفسه لم يقم بزيارة لشبه الجزيرة - تتناول بصفة خاصة الحياة الفكرية

واللغة وفن القياس والكيل والتجارة في البلاد .

ومنذ عهد الخلافة وفي القرون التالية نجد أن جميع الأوصاف التي كتبت أولاً في الغرب عن الأندلس تدين بالفضل للوصف الذي وضعه الإخباري القرطبي المشهور أحمد الرازي المتوفى عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) والمشرقي الأصل ، على رأس تاريخه الكبير عن الأندلس ، وهو الآن مفقود ، وقد رجع بعض الكتاب الى هذا المصدر يستشهدون به دون أن يقرؤا بذلك ، نخص بالذكر منهم ياقوت في كتابه معجم البلدان . ولا نعرف وصف الرازي إلا من نسخة قشتالية نشرها عام ١٨٥٢ كايانكوس P . de Gayangos واستقاها من نسخة برتغالية أنجزت حوالي مستهل القرن الرابع عشر بأمر دنيس ملك البرتغال (١٢٧٩ - ١٣٢٥ م) وقد ترجمها كاتب هذه المادة الى الفرنسية وحاول أن يستعيد أصلها العربي (في And . سنة ١٩٥٣ ، ص ٥١ - ١٠٨) .

وهكذا يتضح أن خطة « وصف » أحمد الرازي ،

قد اتخذت هيكلاً لمعظم الأوصاف التي تلتها على الرغم من أنها أجملت معالمها فحسب .

ومن مفاخر أهل الأندلس الوصف الذي قام به الأندلسي أبو عبيد البكري المتوفى عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) والذي فُقد لسوء الحظ وإن كان يمكن استعادته الى حد كبير من الملاحظات عن الأندلس التي وردت في كتاب الروض المعطار للمصنف المغربي ابن عبد المنعم الحميري وهو من أعيان القرن السابع الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) وقد أفاد الحميري أيضاً من مادة كتاب الشريف الإدريسي . ويجب أن يضاف الى هذه القائمة - علاوة على مجموعات عجائب المخلوقات الخاصة بالأندلس التي تضمنها كتابا القزويني والدمشقي - التعليقات التي جمعها المفري المغربي (القرن السابع عشر) في المجلد الأول من كتابه « نفح الطيب » وهذه التعليقات تستفيض في بعض الأحيان استفادة كبيرة .

٢ - جغرافية الأندلس الطبيعية طبقاً للرواية

الجغرافية الاسلامية : يذهب الرازي الى أن الأندلس هي طرف الأقليم الرابع تجاه الغرب ، وأنها صقع ترويه غالباً أنهار عديدة وينابيع عذبة . وبعد هذا التصريح يشرع الجغرافيون عادة في كيل عبارات التقريظ ويفردون حيزاً كبيراً للفضائل الاسبانية على طريقة إيزيدور الأشبيلي .

والأندلس مثلثة الشكل ، وكل زاوية من هذا المثلث تطابق مكاناً مشهوراً في روايات الأسطورة الأسبانية . ويقوم معبد قادس « صنم قادس » (انظر هذه المادة) في رأس الزاوية عند الجنوب الغربي ، أما الزاوية الثانية فتقع على خط عرض جزر البليار بين نربونة وبوردو (كذا) ، والزاوية الثالثة في الشمال الغربي تطابق برج هرقل Torre de Hercules قرب قورنية . وهذه الآراء توضحها بعض التوضيح أيضاً خرائط كتابي المسالك لابن حوقل والادريسي . وقد فطن الرازي بوضوح الى احدى الخصائص التي تتميز بها البنية الطبيعية لشبه الجزيرة : وهو يرى وجوب

التمييز بين أسبانيا الغربية وأسبانيا الشرقية واضعاً في الاعتبار الفروق في اتجاه الرياح وسقوط المطر ومجرى الأنهار . ففي أسبانيا الغربية تنساب الأنهار نحو المحيط الأطلسي وتحمل الرياح الغربية المطر إليها . ويصدق العكس على أسبانيا الشرقية حيث تسود الرياح الشرقية وتتدفق الأنهار نحو الشرق .

وكثيراً ما ترد معالم أخرى للدلالة على بعض مواقع « المثلث » الذي تكونه الأندلس ، وهي رأس سانت فنسنت في الطرف الجنوبي الغربي للبرتغال ، ويسمى بالعربية « كنيسة الغراب » وهيكل الزهرة في الطرف المقابل (Port — Vendres) .

وعند الاقتراب من الأندلس من جهة قارة أوروبا أو غاليش أو الأرض الكبيرة ، يجب ان يعبر المرء جبال البرانس باجتياز باب أو أبواب أخرى أو « بُرّات » للوصول إلى أرض الغسقونيين (البشكونش) أو إلى أرض الأفرنج . ويمكن من هناك بلوغ شواطئ الأطلسي الذي يسمى بحر الظلمات أو البحر الأخضر

أو البحر المحيط . وقد اقتحم هذا المحيط الخطر عدد من الملاحين المجازفين واشتغلوا بالتجارة الساحلية من أرض السود وجزر الكنار أو « الجزر الخالدات » حتى حدود بريطانيا . ويعرف البحر المتوسط باسم « البحر الكبير » و « البحر المتوسط » أو « بحر تيران »

Tyrrhenian Sea

وفي رأي الرازي انه لا توجد الا ثلاث سلاسل جبلية في أسبانيا تخترق شبه الجزيرة من بحر الى آخر ولا تقطع واحدة منها نهراً . وأولى هذه السلاسل هي سيرا مورينا ، وتسمى جبال قرطبة ، وهي ترتفع من ساحل البحر المتوسط في الشرق وتنتهي في الغرب على المحيط الأطلسي . والثانية هي سلسلة جبال البرانس بين نربونة وجليقية . والثالثة تقطع أسبانيا بانحراف من طرطوشة الى لشبونة ، وهي تطابق سلسلة الجبال المستعرضة المسماة الشارات ، كما جاء في كتاب الادريسي . ومهما يكن من أمر فان الجغرافي يجد لزماً عليه أن يذكر علاوة على هذا سيرا نيفادا (جبل شلير

Mons Solarius (وسانيا المالقفة) ءبل رَّفه) الءف
فمءء الى ءلزفرة الءضراء Algeciras .

وأهم نهر فف الانءلس هو نهر الواءف الكبفر المءروف
أفضاً باسم النهر الأعظم ، ونهر قرطبة ، وفشار الفه
أءفاناً باسمه القءفم نهر بفطف (Beatis) وفبلؒ طوله
٣١٠ أمفال ، وهو نهر بافففكا أءصب ءزه فف شبه
الءزفرة ، وفروف قرطبة وإشبفلفه ، وأهم روافءه هو
واءف سنجفل أو شنفل السءف فنساف مءءرقاً ءرناطة
ولوشة وإسءءة ، وواءف شوش ، والواءف الأحمر .
وقء أطلق علفه هءا الاسم بسبب لون مفاهه الضارب
الى الءمرة ، وواءف بُلُون .

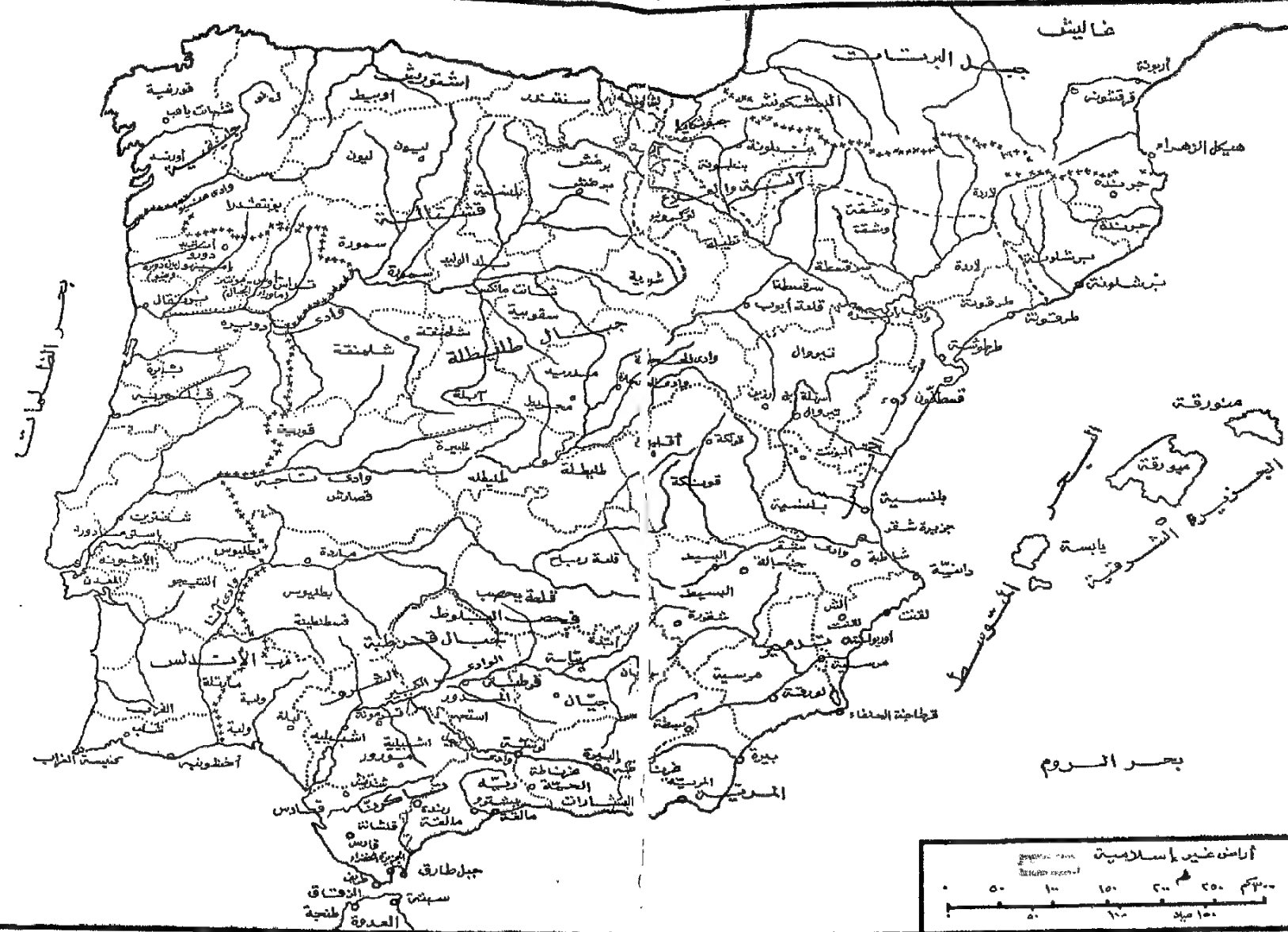
وفبلؒ طول نهر واءف آنا فف ءملته ٣٢٠ مفلاً ، وهو
فنبع من نقطة لا ءبعء عن منبع نهر الواءف الكبفر ،
وفسفر ءانب من مءراه ءءء الأرض ءم فظهر من ءءفء
فف منطقة قلعة رباع ، وفصب فف المءفط الأطلسف عءء
أءشونبة .

وينبع وادي تاجه من جبال طليطلة ، ويقطع من مجراه ٥٨٠ ميلاً ثم يصب في المحيط الأطلسي عند لشبونة . وإلى الشمال منه أيضاً يجري وادي دويره ، وطوله ٧٨٠ ميلاً ، وتغذيه بضعة روافد ، ثم يصب في المحيط الأطلسي عند أوبورتو (برتقال) . وهناك نهر مهم آخر يصب في المحيط الأطلسي وهو نهر منيو (منهو بالبرتغالية) الذي يخترق جليقية من الشرق إلى الغرب ويبلغ طوله ٣٠٠ ميل .

ولا يذكر الرازي من الأنهار التي تصب في البحر المتوسط إلا نهر وادي شقورة الذي ينبع قرب منابع الوادي الكبير ونهر إبره (Rio Ebro) . وينبع الأخير عند فنتنبرة Fontibre ، في قشتالة العليا ، ثم يبلغ أخيراً البحر غير بعيد من طرطوشة قاطعاً مسافة قدرها ٢٠٤ أميال . ولنهر إبره روافد عديدة منها نهر جلّق الذي ينحدر من جبال السيرطانيين .

٣ - الأسماء الاصطلاحية للأقسام الحضرية والأقليمية في الأندلس :

دائرة المعارف الإسلامية



الأندلس مشهورة ، في جميع عهود تاريخها
الاسلامي ، بعدد مراكزها الحضرية ، وهي بهذا
تتباين مع الفقر النسبي في شمالي افريقية فيما يختص
بالمناطق السكانية المعادلة لها في الأهمية . وقد بقيت
كل المدن الرومانية تقريباً بعد الفتح العربي واستمرت
في الازدهار . ومن جهة أخرى فإن المدن الجديدة التي
أسسها الفاتحون لم تكن كثيرة ، وكانت تشيد دائماً -
أو تكاد - لأسباب استراتيجية أو لتكون قواعد ساحلية
يقصد بها الحد من المطامع العدوانية للفاطميين في
غربي البحر المتوسط ، فنجد ، مثلاً ، أن مرسية قد
حلت محل مدينة اللو Ello القديمة ، وأن المرية كانت
في مبدأ الأمر مجرد مركز ساحلي لرصد حركات العدو
قبل ان تتطور في القرن العاشر وتصبح محطة بحرية
ودار صناعة . وفي معظم الحالات بقيت الأسماء
اللاتينية القديمة للأماكن في الواقع دون أن تمس ، مثال
ذلك أن كردوبا أصبحت قرطبة ، وهسبالي أصبحت
إشبيلية ، وقيصر أوغسطا أصبحت سرقُسطة ،

وفالنسيا أصبحت بلنسية ، أو اتخذت في غير ذلك
صيغة التصغير ، ومثال ذلك أن توليتوم Toletum ،
أصبحت طليطلة . وقد كانت أسماء الأماكن التي لها
أهمية تاريخية توريثات في الأصل ، مثال ذلك أن
أوسيلي Ocili أصبحت مدينة سالم Medinacelli التي
تسببت في الوجود الأسطوري لمؤسس موهوم يدعى
سالمًا . أما المدن التي أطلقت عليها أسماء عربية
وصفية فكانت هي الاستثناء من القاعدة ، مثل
الجزيرة الخضراء Algeciras . وحملت بعض الأماكن
اسم القبيلة العربية أو البربرية التي سكنتها بعد
الفتح : مثل بلي (Poley) وغافق شمال قرطبة ،
ومكناسة (Mequinenza) في أراغون .

وثمة عدة أماكن في شرقي الأندلس اتخذت أسماء
كانت تطلق على « محطات » واقرنت باسم عربي
خاص ، وهذا يدل على عمق ما لحقها من تأثير
عربي ، مثل : منزل عطاء (Mislata) ومنزل نصر
(Masanasa) في ضواحي بلنسية ، وصيغت أسماء

كثير من الأماكن في إقليم بلنسية على غرار أسماء قبائل
بإضافة كلمة بني إلى اسم الجد الأكبر (انظر
Lévi — Provençal , Hist . Esp . Mus . , ج ٣ ، ص
٣٢٦ - ٣٢٨) ، وفي العصر الذي كتب فيه أحمد
الرازي وصفه للأندلس كانت الأندلس - أي أسبانيا
الإسلامية - يفصلها عن أسبانيا المسيحية خط من
الحدود يعد منطقة حرام ، تحدها من الجوانب على
طول حدودها ثلاثة ثغور : الأعلى والأوسط والأدنى .
وكان كثير من المناطق في شبه الجزيرة قد فصل بالفعل
في نهاية الأمر عن الأندلس منذ أخلت تحت ضغط
البوادر الأولى لإعادة الغزو المسيحي ، مثل الثغر
الأسباني في الشرق ، وإقليم الباسك في الوسط ،
والساحل الكانتبري في الغرب . ولم تكن الحملة
الشهيرة التي شنّها المنصور العامري على شنت ياقب
(Santiago de Compostela) إلا غارة قصد بها مجرد
الاستعراض دون أن يكون لها أثر حاسم . ومن ثم
فقد العالم الإسلامي نهائياً إبان عهد الخلافة جزءاً من

أسبانيا ، ولم يسع الى استعادته . ومهما يكن من أمر
فإن التنظيم الإقليمي للأندلس ظل كما هو ولم يتغير .

ويرجع تاريخ هذا التنظيم الى القرن الثامن
الميلادي ، ولذلك كان سابقاً على استعادة المروانيين
للخلافة . وكما يقوم على كور لكل منها قسبة وحاكم
وحامية . وتختلف قوائم الكور في عهد الخلافة اختلافاً
كبيراً ، ويورد المقدسي بياناً غير كامل يضم ١٨ اسماً
فقط ، أما ياقوت فيحصى منها ٤١ ، وهو رقم يقارب
الرقم الذي ذكره الرازي الذي يصف ٣٧ كورة على
التوالي . وأورد الادريسي فيما بعد تقسيماً لا يقوم على
كور ، ولكن على « الأقاليم » التي ليس لها مدلول
إداري ، وقدم اسماء كثيرة لا بد أن ننكرها في حزم
باعتبارها منحولة ، وبالاستفادة من المعلومات التي
اوردها الرازي الذي انتهج نظاماً يتمركز حول
العاصمة ، والمعلومات التي ذكرها البكري ، يمكن
بسهولة تحديد المعالم الرئيسية لكل كورة هامة في
التنظيم الاقليمي على عهد الخلافة ، وكان يطلق على

الكورة عادة الاسم نفسه الذي يطلق على قصبتها فيما
عدا بعض استثناءات لوحظت فيما يلي : كانت أهم
كورة هي كورة قرطبة وتحدها من الشمال كورة فحوص
البلوط (Liano de los Pedroches أي « هضبة البلوط »)
وكان أهم موضع فيها غافق (ولا شك في انها بلال الكازار
الحديثة Belalcazar) وعلى الجانب الآخر من سهل
قرطبة الغريني (القنبانية ، لاكامبينا الحديثة
La Campiua) وإلى الجنوب من الوادي الكبير تقع
الكور الصغيرة : قبرة ، وإستجة . وبعدها غرباً
كانت تقوم أقاليم قرمونه وإشبيلية ولبله الغنية . أما
كورة اخشونية وقصبتها شلب فكانت تطابق الغرب
(غرب الأندلس - أي الحد الجنوبي للبرتغال
الحديثة - على المحيط الاطلسي) . وتقع شمالي هذا
الاقليم كورة باجة . وكان الجزء الواقع في اقصى
الجنوب من الأندلس منقسماً الى أربع كور : مورور ،
وشدونة ، والقصبة قلشانة ، والجزيرة الخضراء
وتأكرنا ، والقصبة رندة وبعدها شرقاً كورة مالقة التي

كانت تسمى ريه ، وكانت قصبتها أَرْجُذُونَة ، وكانت متاخمة لكورة إلبيرة وهي (Ilberns سابقاً) ، وتقع الى الغرب قليلاً من غرناطة الحديثة . وكانت كورة إلبيرة تتاخم كورتي جيان وبَجَانَة ، وقد نقلت قصبتها الى المرية في عهد الحكم الثاني .

وكان شرقي الأندلس على البحر المتوسط مقسماً من الجنوب الى الشمال الى ثلاث كور كبرى : تُدْمِير ، وهي المملكة القديمة للأمير تيودمير القوطي وقصبتها ، وشاطِبة وبلنسية اللتين كانتا تمتدان حتى دال وادي إبره . أما في داخل البلاد فيما وراء سلسلة جبال قرطبة (سيرا مورينا) فكانت منطقة طليطلة تكون كورة امتدت شرقاً بضم كورة شنتبرية وقصبتها أقليج . والراجع أن جزائر البليار (الجزائر الشرقية) كانت في عهد الخلافة كورة منفصلة . وفي النصف الغربي من الأندلس ينطبق هذا الذي ذكرناه على الأقاليم التي كانت قد استتب فيها الأمن حديثاً مثل ماردة ، وبَطْلَيْوُس ، وشتترين ولشبونة (الأشبونة) وربما

قُلُمَرِيَّة .

وكانت تسع كُور منها تعرف « بالمُجَنَّدَة » لا تزال تتمتع بمركز ممتاز في عهد الخلافة لأن أراضيها أقطعها الأمير ابو الخطّار الكلبي عام ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) للجنّد الشّاميّة الذين استقدمهم القائد بلّج بن بشر (انظر هذه المادة) الى الأندلس ، وكانت هذه الكورة هي كورة إلبيرة ، وقد أقطعت للجنّد الدمشقيين ، وريه التي أقطعت لجنّد الأردن ، وشذونة التي أقطعت لجنّد فلسطين ، ولبلة وإشبيلية وقد أقطعتا لجنّد حمص ، وجيّان التي أقطعت لجنّد قنّشرين ، وباجة وأخشونة ، ومرسيّة أيضاً ، لجنّد مصر .

وأورد الرازي عدداً من الكور المتطرفة في اقليم الثغور العليا : طرُكُونة المتاخمة للارِدة وبربطانية ومعقلها بربشTRO ، ووَشُقّة وتُطِيلَة ، ومدنها المحصنة في طرسونة وأرنوط وقلهرة وناجرة .

رابعاً - سكان الأندلس

إن عدم وجود احصاءات يعتمد عليها وصمّت الجغرافيين يعوقان القيام باي تقدير ، ولو كان نسبياً ، لعدد سكان الاندلس في العهد الذي امتدت فيه رقعتها الجغرافية الى أقصى حد ، أي في نهاية القرن العاشر الميلادي . وإذا أخذ المرء بالتقدير القائم على الحدس والتخمين بأن تعداد السكان كان حوالي عشرة ملايين في عهد القوط الغربيين قبيل الفتح العربي ، فانه ظل بلا ريب كما هو على وجه التقريب بسبب قلة عدد المسلمين المهاجرين من أجناس أخرى مع ترجيح زيادة نسبة سكان الحضر والقرى عن العناصر الريفية . ومن جهة أخرى يمكن إضفاء أهمية اكبر على الفرض الذي يذهب الى أن توزيع السكان على مختلف مناطق شبه

الجزيرة كانت تملّيه دائماً البيئة الطبيعية ، وأن كثافة السكان في أية منطقة معينة كانت تتوقف على ارتفاع الاقليم وطبيعته وعلى المناخ وخصوبة التربة وإمكان ريّها . ولا يعد من قبيل المبالغة ان نقول على سبيل التخمين ان أقاليم الأندلس التي يقيم فيها اليوم أقل عدد من السكان كانت على نفس هذا الوضع في عهد خلافة قرطبة .

ومن بين العناصر المكونة لسكان الأندلس المسلمين يجب التمييز بين جماعة المسلمين الجدد - أي الأسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام بعد الفتح نتيجة لتحويلهم عن دينهم القديم على تفاوتهم في المبادرة الى ذلك - وبين العناصر التي تنتمي الى أجناس أخرى . ومن بين هذه العناصر الأخيرة التي توطنت في البلاد نتيجة لموجات المهاجرين المتتابة وإن كانت قليلة العدد ، يبدو أن عنصر البربر كان أهمها جميعاً ، والظاهر أن البربر لم يأتوا من جميع بلاد البربر ، ولكنهم جاءوا من أقاليم المغرب الدانية من الأندلس ، وهي جبل مراكش

والريف . وأما البربر الذين جاءوا من الجانب الآخر لمضيق جبل طارق عندما كانت الظروف السياسية والاقتصادية مواتية لا تضطربهم الى العودة الى بلادهم الأصلية على جناح السرعة ، فقد دفعهم الى الأراضي الجبلية المهاجرون العرب الذين تألفت منهم الطبقة الأرستقراطية لكي ينعموا وحدهم دون سواهم بحق التحكم في أخصب البقاع بالأرض الأندلسية . وقد يُظن - استناداً الى بعض المعلومات التي أوردها كتاب مثل ابن حزم ، وخاصة في كتابه الجمهرة - أن مستعمرات البربر لم تشغل الا بعض أراض متفرقة من المنطقة الساحلية ، وأنهم اضطروا الى الاستقرار في الميزيتا . وما ان توطدت أقدامهم حتى استعرب هؤلاء البربر الأندلسيون الى حد أنهم انصرفوا عن استخدام لهجاتهم الأصلية . وظل الأمر كذلك حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، وهناك حدث تدفق جموع أخرى من الجند من جراء تجنيد المرتزقة من البربر على نطاق واسع في المغرب الأوسط والشرقي ، ومن ثم

دخل الى الأندلس جماعة من أهالي شمالي افريقية عجلوا بتقويض بناء الخلافة وتجمعوا جماعات سلالية كونت في القرن التالي طائفة البربر التي تقابل طائفة الأندلسيين .

والعنصر العربي في الأندلس لم يكن قط إلا أقلية . أما الأغلبية فقد دخلت البلاد إما في عهد الفتح أو في خلال السنوات التالية ، وازدادت قوة فيما بعد بعناصر طارئة من الجند الشاميين وبالمهاجرين الذين أقبلوا زرافات من آسية في عهد استعادة المروانيين للخلافة في الأندلس . ولعل العرب كانوا اصلاً لا يتجاوزون بضعة آلاف قبل زواجهم من النساء الوطنيات ، وقد انتج نظام « الولاء » عدداً لا يستهان به من الناس الذين ادّعوا ، خطأً أو صواباً ، أنهم من أصل عربي . ومن المسلم به على أية حال أن العرب كانوا يمثلون عنصراً عدوانياً مشاغباً في القرون الأولى من تاريخ الأندلس ، وأنهم قد احتفظوا لأنفسهم بأجود الأراضي على الرغم من احتقارهم للعمل في فلاحه

الأرض ، وتركوا للمستعمرين المشاركين لهم
في المحصول مهمة فلاحية الأرض ، وكانوا يؤدون لهم
أجورهم نصيباً من المحاصيل يتفق وما عملوا .

وهناك عنصر ثالث دخیل على المجتمع الأندلسي لا
مفر من الإشارة إليه هنا على الرغم من انه لم يكن إلا
نسبة ضئيلة الى حد ما من السكان ، وهذا العنصر
يضم العبيد والصقالبة . فالعبيد الذين جلبهم
النخاسون من السودان الى أسبانيا لم يكونوا في النهاية
حرساً من المرتزقة يتزايد عددهم باطراد فحسب ، بل
هم قد امتزجوا أيضاً بباقي سكان المدن نتيجة الزواج
من نساء العبيد اللاتني حظين بتقدير خاص وكن
مطلوبات من الرجال بسبب ما يمتزن به من فضائل
ومهارة في الشؤون المنزلية . ومن جهة أخرى فإن
الصقالبة (أنظر هذه المادة) - الذين كانوا من الأسرى
في القارة الأوروبية ، من ألمانيا الى بلاد الصقالبة ، أو
كانوا من الأسرى الذين اعتقلوا أثناء حملات
« الصائفة » على حدود الأندلس إبان العهد الثاني من

الخلافة - قد أصبحوا ، بصفة خاصة في قرطبة ، طائفة كبيرة العدد نشيطة كان لها وزنها الكبير في اقتصاد الدولة القرطبية ، كما أسهموا الى حد كبير في انهيارها السريع .

وعلى الرغم من أن البربر والعرب والعناصر الإسلامية الأجنبية الأخرى كان لهم شأن كبير ، فإنهم كانوا أقل عدداً بكثير من جماعة المسلمين الجدد الأسبان الذين كانوا أعظم منهم شأنًا والذين عرفوا في الأندلس باسمي جنس هما « المُسَالِمَة » أو « المولّدون » بنوع خاص . وهؤلاء هم الأسبانيون الذين اعتنقوا الاسلام بعد الفتح لكي يتمتعوا بمركز شخصي أفضل من مركز الذمّي . وهذا الاستعراب الكامل السريع لكل من دخلوا في الاسلام ، الذين أظهروا في أغلب الأحوال إخلاصاً عظيماً صادقاً له ، يعد ظاهرة ملفتة للنظر . وفي خلال فترة قصيرة اندمج المولّدون في مجتمع الإسلامى ، وأتاحوا لحكام البلاد بحسن تغلاهم لخدماتهم أن يرأبوا الصدع الناتج من نقص

المهاجرين من قدامى المسلمين . وسرعان ما انصهر
كثير من المولدين في بوتقة المجتمع الأندلسي ، بل هم
قد نسوا أصلهم الأسباني (الايبيري أو القوطي) على
الرغم من انهم كانوا يحملون في كثير من الأحوال أسماء
أعجمية . وأدى التعايش في ظل الاسلام بين العناصر
المختلفة الأصول من السكان الى اندماجهم
بالتدريج ، وهي عملية ساعد عليها انتهاج سبيل
واحد ، وإيقاع واحد في الحياة ، وازدواج اللغة الذي
وضع - على الأقل - اللغة العربية الأندلسية والعجمية
في الحياة اليومية على قدم المساواة .

وانقسم سكان الأندلس المسلمون - الذين كانوا
يتألفون من عناصر متعددة الأصول وإن كانوا قد
أصبحوا بالتدريج متجانسين نسبياً - الى عدد معين من
الطبقات الاجتماعية على غرار ما حدث في بقية العالم
الاسلامي : طبقة خاصة ، وطبقة عامة . وتضم
الأولى الأسر النبيلة الكبرى التي كثيراً ما كانت ألقابها
تُنح لها بالوراثة ، بينما كانت الطبقة الوسطى تتألف من

التجار وملأك الأراضي الصغار ، وسرعان ما أصبحت نوعاً من البورجوازية المدنية ، وإن كانت بدون مواثيق أو حصانات . وعلى النقيض كانت العامة في المدن وبخاصة في الريف جمهوراً يتعرض للمضايقات الشديدة من السلطة . ولما كانت تعوزنا في الواقع معلومات عن القانون الزراعي الذي كان سارياً في الأندلس ، فإننا مضطرون الى أن نفترض وجوداً لم يكن منه بد لطبقة من الدهماء في الريف ، تتألف من عملة المياومة الذين ارتبطوا بالأرض وعاشوا حياة تعسة ، ولا يستطيعون في الغالب التخلص من حالة الاستعباد التي كانوا عليها .

وكان المعاهدون في المجتمع الأندلسي يؤلفون جزءاً مهماً من السكان يضم المسيحيين واليهود على السواء . وكان الأولون يتجمعون عادة في طائفة تعرف باسم المستعربين Mozarabes ، وكلهم ينتمون الى ذلك الجزء من السكان الأسبان الذين رفضوا أن يتخلوا عن عقيدتهم وقت الفتح ليعتنقوا دين الفاتحين . وكانت

طوائف المستعربين في المدن الكبيرة على الأقل ، وبخاصة قرطبة وإشبيلية وطليطلة ، تخضع لنظام في حماية السلطة الإسلامية المركزية وتحت إشرافها ، وكان لها زعيم مسؤول أمام تلك السلطة هو القومس ، وكان يطلق عليه أحياناً اسم المدافع أو الحامي ، يمارس سلطات مأمور الشرطة على طائفته ، وكان منوطاً بجباية الضرائب مسؤولاً عنها يعاونه قاضٍ خاص هو « قاضي العجم » أو الرقيب عليهم ، يفض المنازعات بين المستعربين . وظلت أرض الأندلس حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي مقسمة الى نفس المناطق الكنسية ، كما كان الأمر في عهد القوط الغربيين ، أي الى ثلاث مطرانيات : (طليطلة ، ولوزيتانيا ، وباييتيكا) على رأس كل منها كبير أساقفة ، ولكل منها أسقفية وعدة أبرشيات .

وقد حفظ لنا البكري التفاصيل فيما يسميه « قسمة قسطنطين » وبقيت لنا أسماء بضعة أعيان من أندر أقطاب الكنيسة في الأندلس على عهد الخلافة . وطائفة

المستعربين بقرطبة هي التي يتوافر لنا عنها أكبر قدر من المعلومات ، وإن كانت هذه الطائفة ليست أهم الطوائف من الناحية العددية .

ومعلوماتنا أقل عن عدد جماعات اليهود ونشاطهم في مدن الأندلس التي كان بكل منها حي لليهود (حارة أو مدينة اليهود ، وبالأسبانية Juderia) . وفي الوقت نفسه نجد في القرن الحادي عشر وبخاصة في المملكة الزيرية بغرناطة ، أن الدور الذي لعبه مأمور والضرائب والصرافون اليهود ، وأهمهم عائلة بني النُّغْرَلا ، وقتل الأمنين من المواطنين بلا حساب في غرناطة على أثر اغتيال ولي العهد الأمير بلكين بن باديس بن حبوس ابن زيري ، وما نسب للطائفة اليهودية الكبيرة التي كانت هي الجزء الأكبر من السكان في مدينة أَلْيُسَّانة من فضل في اقتصاد دولة غرناطة الصغيرة ، كل أولئك قد أدى الى الاعتقاد بأن يهود الأندلس في كل مراحل إعادة الغزو ، سواء في خدمة المسلمين أو المسيحيين ، قد قاموا بدور نشيط في البلاد بصفاتهم مستشارين

وسفراء ، وأنهم كانوا يتحكمون في أسباب التجارة بين
الأندلس والقارة الأوربية من جهة ، وبين المشرق
الاسلامي من جهة اخرى . وقد يُنتظر الكثير في هذا
الصدد من دراسة الوثائق التي تيسر الحصول عليها من
خزانة كنيسة اليهود في القاهرة ،

خامساً - تطور الأندلس

كان الجغرافيون هم الذين زودونا في الأصل بمعلومات تتفاوت في تفصيلها عن الطريقة التي كانت تزرع بها أرض الأندلس وتستغل بها مواردها النباتية والمعدنية . كما أن بين أيدينا مراجع اصطلاحية مستفيضة الى حد لا بأس به تتمثل في مصنفات في علم الزراعة من عصور مختلفة وبخاصة كتب التَغْنَرى وابن وافد وابن بَصَّال وابن ليون وابن العَوَّام . ويجب علينا أن نذكر « التقويم القرطبي لعام ٩٦١ م » الذي نشره دوزي Dozy عام ١٨٣٧ على اعتبار أنها في الوقت نفسه نسخة متأخرة بلا شك نسبت الى المؤرخ القرطبي عريب بن سعد (أنظر هذه المادة) ومن سوء الطالع أن هذه المصادر الاصطلاحية لا تزودنا في الواقع بمعلومات

عن طرق الزراعة وعن عقود الایجار ، وإن كانت بعض كتب الفقه تزودنا عن هذه المسائل بمعلومات غامضة كل الغموض لا يمكن الاعتماد عليها تماماً .

١ - الزراعة : وقد كان ثمة تفرقة ، كما هي الحال في أسبانيا اليوم ، بين الأرض الجافة (secano بالأسبانية = بعل بالعربية) والأرض المروية (regadio بالأسبانية = سقي بالعربية) فالأولى كانت تخصص لزراعة الحبوب . ونظراً لقلة خصوبة الأرض والظروف المناخية غير المواتية فإن زراعة الحبوب كانت عاجزة كل العجز عن أن تمد السكان بحاجتهم من القمح والحبوب الأخرى التي تستخدم في صنع الخبز ، ونتيجة لذلك كانت الأندلس ، في بعض فترات القحط ، تعتمد على واردات القمح من شمالي إفريقيا . وكانت بعض أنواع القمح الأندلسي (طليطلة) تحظى بشهرة خاصة . وقد استخدم الطحانون طواحين تدار بالخيول أو طواحين مائية (رَحي) .

وكانت هناك مساحات شاسعة من البلاد ،
وبخاصة في اندولوسيا وإقليم الشرف تغطيها أشجار
الزيتون ، وكان صناعة زيت الزيتون دائماً رائجة
هناك . وكانت طرق استخلاصه بدائية ، بيد أن
كميات الزيت المنتجة كانت تزيد أحياناً عن حاجات
الناس هناك ، فيصدر الفائض منه الى بقية أنحاء
العالم الإسلامي .

ويبدو أن زراعة الكروم ، مثل سائر أشكال
الزراعة البعلية ، كانت تمارس على نطاق واسع .
وكانت الأعناب تستخدم في الطهي ، وكانت
السلطات فوق ذلك تسمح في الواقع بشرب النبيذ ،
وكان بيعه منظماً .

ومهما يكن من أمر فإن الأندلسيين سرعان ما حققوا
لأنفسهم تفوقاً لا نظير له في مجال المحاصيل التي تحتاج
الى ري مناسب ، على الرغم من أنه لا يمكن أن ينسب
اليهم فضل اختراع نظام الري الذي استخدموه ،
وبخاصة في شرقي الأندلسي ، والذي لا يزال قائماً دون

أن يلحقه تعديل جوهري . وأبسط شكل للري هو ذلك الذي يتم بمساعدة شبكة من قنوات الري (ساقية ، وبالأسبانية acequia) التي تتشابك في السهول الساحلية في إقليميّ مُرسيّة وبلنسية والتي يعتمد تدفق المياه فيها تماماً على الاختلافات في مستوى الارتفاع . وكانت حقوق الماء يحددها العرف طبقاً لشريعة لها طبيعة أبوية ، ولا تزال سارية حتى اليوم . ولم يكن من الميسور القيام بالري في الأراضي الأكثر ارتفاعاً ، وفي وديان الأنهار مثل وادي آنا ووادي تاجه ووادي إبّره ، إلا بمساعدة آلات رفع الماء التي كانت تسمى بحسب طرازها ووظيفتها باسم « ناعورة » (noria بالأسبانية والفرنسية) أو سانية (acena بالأسبانية) .

وكان هذا الري يستخدم في زراعة الخضر وغرس الأشجار ، ويتبارى الجغرافيون في الإشادة بفواكه الأندلس : الكرز والتفاح والكمثرى واللوز والرمّان ، وخصوصاً التين الذي اشتهرت منه أنواع

عديدة في أسبانيا . وفي بعض المناطق الساحلية الضيقة المستورة سترأ يفوق العادة ، كان من الممكن تنمية محاصيل من النوع الذي يزرع في المناطق الحارة مثل : قصب السكر والموز ، وكانت أحراج النخيل في (ألش) من المناظر المألوفة في البلاد .

وأخيراً فإن زراعة الأعشاب العطرية والنباتات التي تدخل في صناعة الأقمشة كانت تتم أيضاً على نطاق كبير ، مثل الزعفران والعصفر واليكمون والكزبرة والفوة والحناء من جهة ، والكتان والقطن من جهة أخرى . وازدهرت تربية دودة القز ، وبخاصة في المنطقة الواقعة بين غرناطة والبحر المتوسط .

وقد أفرد الجغرافيون في أوصافهم حيزاً قليلاً لتربية الحيوانات التي تستخدم في الركوب والجر أو الحيوانات التي يؤكل لحمها . وكانت الخيول تربي في الأراضي المكسوة بالحشائش في الحوض الأدنى لنهر السوادي الكبير ، كما كانت البغال الأندلسية تحظى فعلاً بشهرة كبيرة في عهد ابن حوقل ، وكانت الماشية والأغنام

والماعز تربى في كل مكان للإفادة من المراعي القليلة المتاحة . وكان الناس يقومون بتربية النحل لإنتاج العسل .

وكانت منطقة الغابات في الأندلس تُستغل لسد احتياجات المدن وبخاصة من الفحم النباتي . وكانت أشجار الصنوبر الكثيرة على حافة الميزيتا تقطع لاستخدامها دعائم لصواري السفن . أما الأراضي الفسيحة الشبيهة بالسهوب في الجنوب الشرقي فكانت تزود البلاد بأشجار النخيل القصيرة ونبات الحلفاء التي كانت تستخدم في صناعة السلال ، وفي أغراض منزلية مختلفة .

٢ - استغلال المعادن : ليس من شك في أن غنى أرض الأندلس بالمعادن كان يبرر استغلال المعادن منذ أقدم العصور ، وقد استمر هذا العمل في عهد الاسلام ، وكان الى جانب الذهب المستخرج من الرمال التي تحمل الذهب في بعض الأنهار ، عروق من الفضة والحديد تستخرج من مناجم في شمالي قرطبة ،

وكانت هناك رواسب من الزنجفر تستغل في المعدن وأوقيخو ، وكان النحاس يستخرج من مناجم حجر النار في إقليم ولبة . وكانت معادن الشب وكبريتات الحديد والرصاص وكبريتور الرصاص تستخرج أيضاً . كما كانت أسبانيا الإسلامية مشهورة برخامها وأحجارها الكريمة . وأفاد الأندلسيون - مثل الرومان قبلهم - من كثير من الينابيع الحارة التي لا تزال كلها تقريباً تحتفظ باسمها القديم : الحامة .

وكان استغلال مناجم الملح الصخري ورواسب الملح على الساحل في قادس والمرية ولقنت صناعة مزدهرة . وكان الناس يشتغلون بالصيد متوسلين خاصة بشباك الخيوط والمضربة ، وكانت أسماك السردين والتونة تصاد بكميات كبيرة .

سادساً - إلمامة عامة بتاريخ الأندلس

ليس في ميسورنا هنا الا ان نقدم موجزاً لتطور تاريخ الأندلس أثناء القرون السبعة لاحتلال المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا . ولزيادة الإيضاح سوف نقسم هذا الموجز الى عدد من الأقسام التاريخية التي تتيح تقديم رواية مرتبطة تاريخياً دون الحاجة الى ذكر الحوادث بتفصيل أكبر في معظم الحالات .

- ١ - فتح الأندلس .
- ٢ - تاريخ الأندلس حتى استعادة الروانيين للخلافة .
- ٣ - المملكة الروانية في قرطبة .
- ٤ - الخلافة والحكم العامري المطلق .
- ٥ - انهيار الخلافة الروانية وتقسيم مملكة الأندلس .
- ٦ - ممالك ملوك الطوائف حتى معركة الزلاقة .
- ٧ - إسبانيا في عهد المرابطين .
- ٨ - إسبانيا في عهد الموحدون وتقديم المسيحيين في إعادة غزوها .
- ٩ - المملكة النصرية في غرناطة وغتنام إعادة الغزو .

١ - فتح الأندلس

فتح الأندلس : يُعد فتح الأندلس من أعظم الفتوح التي قام بها العرب في القرن الأول للإسلام ، ونظراً للسرعة التي تم بها . والأخبار التي وصلتنا عن المراحل المتعاقبة للفتح التي أدت إلى بسط سلطان المسلمين على شبه جزيرة إيبيريا بأسرها قصير بصفة خاصة ، ولا يمكن الاعتماد عليها ، ذلك أن الأساطير لم تلبث أن غشت الحقيقة التاريخية بقناع يكاد من الصعب النفوذ إليها دائماً . ومن الواضح أن العرب أفادوا في الوقت الملائم من ضعف مملكة القوط الغربيين في أسبانيا فوجهوا إليها اهتمامهم ، وأنهم وجدوا تعاوناً صادقاً من كثير من الأسبان أنفسهم الذين كانوا راغبين في أن يطرحوا عن كاهلهم نير العبودية الذي أصبح بالنسبة لهم عبئاً لا يطاق ، والاستعانة

بالعرب في التخلص منه . وكانت الفرصة مغرية
عندما كان سلطان العرب في شمالي مراكش قد توطد
وشيكاً ، وكان منصب والي افريقية والمغرب في يدي
موسى بن نصير (أنظر هذه المادة) . ويرجع الفضل
في فتح الأندلس الى هذا الوالي ونائبه مولاه طارق بن
زياد (أنظر هذه المادة) .

ويبدو من المؤكد أن موسى بن نصير نفسه استقر
عزمه على محاولة احتلال أراض جديدة على الجانب
الآخر من مضيق جبل طارق قبل أن يبعث بالأمر الى
الخليفة الأموي في دمشق ، واتخذ موسى هذه الخطوة
نتيجة للوعود التي تلقاها من نائب الامبراطور في مدينة
سبته التي ظلت في حوزة البوزنطيين على الرغم من
سقوط قرطاجنة حديثاً في ايدي المسلمين . وسهل هذا
النائب ، وهو الكونت يوليان ، للمسلمين النزول
لأول مرة على أرض أسبانيا ، ولم يكن هذا النزول إلا
غارة فحسب قام بها طريف قائد البربر على جزيرة
طريف في رمضان سنة ٩١ هـ (يولييه سنة ٧١٠ م) .

وشجع نجاح الغارة التي قام بها طريف ، طارقاً نائب موسى بن نصير ، على الاستعداد للحرب بقوة هجومية مكونة من ٧,٠٠٠ رجل وطلدت أقدامها على أرض الأندلس قرب جبل طارق بمساعدة أسطول الكونت يوليان الصغير في شهر رجب أو شعبان من سنة ٩٢ هـ (أبريل - مايو سنة ٧١١ م) .

ووقعت المعركة الحاسمة بين قوة المسلمين المهاجمة والجيوش النظامية لملك القوط الغربيين بعد بضعة أسابيع ، يوم ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يولييه سنة ٧١١ م) في وادي لكه (وادي بربط) وانتهت بكارثة للقوط الغربيين الذين اضطربوا وولّوا فراراً ، بينما قرر طارق أن يزحف الى الأمام . وسقطت مدن المملكة القوطية واحدة إثر أخرى : فقرطبة استولى عليها عتيق يدعى مغيثاً في مستهل عام ٩٣ هـ (أكتوبر سنة ٧١١ م) ، وسقطت طليطلة دون مقاومة . ولما كان موسى ابن نصير تواقاً الى ألا يدع طارقاً ينفرد وحده بكل المجد الذي يضيفه الفتح ، فإنه دخل أسبانيا بعد ذلك بوقت

قصير في رمضان عام ٩٣ هـ (يونيه سنة ٧١٢ م) على رأس قوة من ١٨,٠٠٠ رجل أغلبهم من العرب ، واستولى على إشبيلية ثم ماردة في شوال سنة ٩٤ هـ (يونيه - يولييه ٧١٣ م) والتقى موسى بطارق عند طليطلة ، ومن هناك زحف ليحتل سرقسطة . وفي ذلك الوقت تلقى أمر الخليفة الوليد بالعودة مع طارق الى الشام ، فغادرا أسبانيا التي كانت قد فتحت كلها تقريباً ، ولم يعودا اليها قط .

٢ - تاريخ الأندلس حتى استعادة المرابطين للخلافة

ليس من شك في ان شخوص موسى بن نصير إلى الشرق يفتح فترة تبوأ فيها عدد من الولاة الواحد بعد الآخر مناصب حكام البلد الذي فتح حديثاً وخولوا من قبل حكومة دمشق سلطات يباشرونها أو تولّوا مناصب نواب للوالي بالاسم في القيروان ، وهي فترة يكتنفها الظلام الى أقصى حد ، بعثت فيها المنافسة بين العشائر العربية في أسبانيا ، وأدت الى أعظم بلبلة سياسية وتميزت فحسب بمحاولات عديدة لبسط سلطان المسلمين على الاقليم الغالي (الاستيلاء على برشلونة وجيرون ونربونة) والقياس بغارة على أهالي نربونة وتولوز سنة ١٠٠ - ١٠٢ هـ (٧١٩ - ٧٢١ م) ، وفي عام ٧٢٥ م أنفذت حملة الى وادي نهر الرون حتى

برغنديا . وانتهت آخر حملة كبيرة قام بها الوالي عبد الرحمن الغافقي الذي قتل أثناء المعركة بهزيمة المسلمين على يد شارل مارتل دوق الفرنجة في « بلاط الشهداء » ، وهي معركة غلب عليها اسم معركة بواتييه ووقعت في رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) .

بيان بولالة الأندلس المسؤولين أعمام أخلفاء رني دمشق

- ١ - عبد العزيز بن موسى بن نصير (انظر هذه المادة) ، خلف أباه عقب وفاته سنة ٩٤ هـ (٧١٢ - ٧١٣ م) واغتيل في رجب سنة ٩٧ هـ (مارس سنة ٧١٦ م) .
- ٢ - أيوب بن حبيب اللخمي (٩٧ هـ = ٧١٦ م) ومدة ولايته ستة شهور ،
- ٣ - الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي (انظر هذه المادة) تولى الأندلس سنة ٩٧ - ١٠٠ هـ (٧١٦-٧١٩ م)

- ٤ - السَّمُح بن مالك الخولاني ، تولاها من
رمضان سنة ١٠٠ هـ - ذو الحجة سنة ١٠٢ هـ
(٧١٩ - ٧٢١ م) .
- ٥ - عُنْبَسَة بن سُحيم الكلبي ، تولاها من سنة
١٠٢ - ١٠٧ هـ (٧٢١ - ٧٢٦ م) .
- ٦ - عُذْرَة بن عبد الله الفهري ، تولاها سنة ١٠٧
هـ (٧٢٦ م) .
- ٧ - يحيى بن سلامة الكلبي ، تولاها من سنة
١٠٧ - ١١٠ هـ (٧٢٦ - ٧٢٨ م) .
- ٨ - حُذَيْفَة بن الأحوص القيسي ، تولاها سنة
١١٠ هـ (٧٢٨ م) .
- ٩ - عثمان بن أبي نِسْعَة الخثعمي ، تولاها من سنة
١١٠ - ١١١ هـ (٧٢٨ - ٧٢٩ م) .
- ١٠ - الهيثم بن عبيد الكلابي ، تولاها سنة ١١١
هـ (٧٢٩ - ٧٣٠ م) .
- ١١ - محمد بن عبد الله الأشجعي ، تولاها من
سنة ١١١ - ١١٢ هـ (٧٣٠ م) .

- ١٢ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (انظر هذه المادة) ، تولاهما من سنة ١١٢ - ١١٤ هـ (٧٣٠ - ٧٣٢ م) .
- ١٣ - عبد الملك بن قَطَن الفهري (انظر هذه المادة) ، تولاهما من سنة ١١٤ - ١١٦ هـ (٧٣٢ - ٧٣٤ م) .
- ١٤ - عقبة بن الحجاج السَّلُولي ، تولاهما من سنة ١١٦ - ١٢٣ هـ (٧٣٤ - ٧٤١ م) .
- ١٥ - عبد الملك بن قطن (للمرة الثانية) حتى سنة ١٢٣ هـ (٧٤١ م) .
- ١٦ - بَلَج بن بشر القُشَيْري (انظر هذه المادة) ، تولاهما من سنة ١٢٣ - ١٢٤ هـ (٧٤١ - ٧٤٢ م) .
- ١٧ - ثعلبة بن سلمة العاملي ، تولاهما سنة من ١٢٤ - ١٢٥ هـ (٧٤٢ - ٧٤٣ م) .
- ١٨ - أبو الخطَّار الحسام بن ضرار الكلبي ، تولاهما من سنة ١٢٥ - ١٢٧ هـ (٧٤٣ - ٧٤٥) .
- ١٩ - ثَوَابَة بن سلمة الجذامي ، تولاهما سنة من

١٢٧ - ١٢٩ هـ (٧٤٥ - ٧٤٦ م) .

٢٠ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، تولاها من

سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) - سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م)

وهو تاريخ إعلان البيعة لعبد الرحمن الأول .

٣ - المملكة المروانية في قرطبة

١٣٨ - ٣٠٠ هـ =

٧٥٦ - ٩١٤ م

إن الظروف التي صاحبت وصول عبد الرحمن بن معاوية المطالب بالخلافة الى أسبانيا ، ومكنته من أن يكسب لقضيته عدداً كبيراً من الأتباع والأنصار من أسرته ، وانتهت بهزيمة الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري قرب قرطبة حيث بويع عبد الرحمن أميراً للأندلس في اليوم العاشر من ذي الحجة عام ١٣٨ هـ (١٥ مايو سنة ٧٥٦ م) قد رويت في المادة الخاصة بهذا الأمير (انظر مادة « عبد الرحمن الأول ») .

بيان بأمرء الأندلس حتى مبايعة عبد الرحمن الثالث

- ١ - عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، ولد عام ١١٣ هـ (٧٣١ م) ، وأمير الأندلس من عام ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) الى عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) .
- ٢ - هشام الأول بن عبد الرحمن الأول ، ولد عام ١٣٩ هـ (٧٥٧ م) ، وأمير للأندلس من عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) حتى وفاته في ٣ صفر عام ١٨٠ هـ (١٧ أبريل سنة ٧٩٦ م) .

- ٣ - الحكم الأول بن هشام الأول ، ولد عام ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) ، وأمير الأندلس من عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) حتى وفاته في ٢٥ ذي الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢١ مايو سنة ٨٢٢ م) .
- ٤ - عبد الرحمن الثاني بن الحكم الأول ، ولد عام ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٠٦ هـ (٨٢٢ م) حتى وفاته يوم ٣ ربيع الثاني عام ٢٣٨ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) .
- ٥ - محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني ، ولد عام ٢٠٧ هـ (٨٢٣ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) حتى وفاته يوم ٢٨ صفر عام ٢٧٣ هـ (٤ أغسطس سنة ٨٨٦ م) .
- ٦ - المنذر بن محمد الأول ، ولد عام ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) حتى وفاته يوم ١٥ صفر ٢٧٥ هـ (٢٩ يونيو سنة ٨٨٨ م) .
- ٧ - عبد الله بن محمد الأول ، شقيق الخليفة السابق ،

ولد عام ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٧٥ هـ (٨٨٨) حتى وفاته في غرة ربيع الأول عام ٣٠٠ هـ (١٦ أكتوبر سنة ٩١٢ م) .

ومن بين المعالم المشهورة لهذه الفترة التي تولى فيها بنو مروان إمارة الأندلس واستمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، إدخال المذهب المالكي الى الأندلس إبان حكم هشام الأول الذي استتب فيه السلام ، وجهود الأمراء طوال الفترة بأكملها تقريباً في علاج الفتن التي كان قد أثارها البربر والعرب في الثغور وإعلان الجهاد على حدود المملكة . وادت المحاولات التي بذلت للإطاحة بالحكم الأول (وبخاصة « فتنة الرَبَض » الشهيرة) في مناسبات عديدة الى وضعه في موقف خطير . وفضلاً عن هذا فإن حركة إعادة الغزو على يد المسيحيين نجحت بالتدريج نتيجة للروح العدائية لأمراء أشتوريش وليون الأوائل ، وإفرنج الثغر الأسباني (وانتهت أخيراً بسقوط برشلونة) .

وانفرجت الأزمة الداخلية الى حين على يد عبد

الرحمن الثاني (انظر هذه المادة) الذي حارب في وقت واحد الإفرنج والغسقونيين (انظر هذه المادة) في وادي إبره وسحق ثورة المستعربين في قرطبة (عام ٨٥٠ - ٨٥٩) وألقى في البحر الأردمانيين - أو المجوس - الذين نزلوا على ساحل إشبيلية . وهذا الحاكم العظيم خالف « التقليد الشامي » الذي أدخله الى أسبانيا جده الأكبر عبد الرحمن الأول ، ونظم الدولة على النمط العباسي .

وواصل عمله ابنه محمد الأول ، على أن حركة العصيان التي قام بها عبد الرحمن بن مروان الجليقي (انظر هذه المادة) قد تجددت اثناء حكمه ، وقامت فتنة عمت جنوبي الأندلس بأسره بزعامة عمر بن حفصون (انظر هذه المادة) واستمرت إبان العهد التالية ، زد على ذلك أنه نشب في أيام الأمير عبد الله قتال خطير بين العرب والمولدين في إقليم إلبيرة وإشبيلية .

٤ - انخلافه واحكام العامري المطلق

بالنسبة لحكم عبد الرحمن الثالث الناصر الذي كان طويلاً مثمرًا ، وعودة الخلافة القرطبية ، والسياسة الداخلية والخارجية : مادة « عبد الرحمن الثالث » ولم يكن حكم عبد الرحمن الثالث الذي دام خمسين عاماً هو ذروة حكم بني مروان في شبه الجزيرة فحسب ، بل لقد كان أيضاً أزهى العصور في تاريخ المسلمين بالأندلس . ولما توفي عبد الرحمن في ٢٢ رمضان سنة ٣٥٠ هـ (٤ نوفمبر سنة ٩٦١ م) . خلفه ابنه الحكم الثاني ، وكان يبلغ من العمر زهاء خمسين عاماً ، وظل في الحكم حتى توفي في ٣ صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . وكان حكم الحكم الثاني أيضاً موفقاً ومزدهراً . ولقد كانت قرطبة

كما وصفتها الشاعرة الساكسونية هرسويذا Hroswitha « زينة الدنيا » ، كما وجدت في الوقت نفسه في شخص أمير مثل الحكم الثاني - الذي كان أديباً محباً للكتب - ما يحفزها الى أن تصبح أعظم مركز ثقافي للغة والأدب والفقه في العالم الاسلامي بأسره لذلك العهد ، والتمست أسبانيا المسيحية منه التحكيم ، وبدا أن حركة إعادة الغزو قد كبح جماحها الى غير رجعة .

ولما توفي الحكم الثاني لم يترك خلفاً له الا ابناً صغيراً لا يصلح للحكم هو هشام الثاني الذي ولد عام ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) وكان ثمرة زواج الخليفة من « أم ولد » غسقونية هي صُبُح . وما إن أحبطت دسائس القصر حتى أصبح الطريق ممهداً أمام رجل طموح عالي الهمة ، لم يلبث أن قبض على زمام السلطة ووجه أقدار الخلافة بيد من حديد : ألا وهو « الحاجب » المشهور محمد بن أبي عامر الذي لقب بالمنصور (انظر هذه المادة) فيما بعد . ولن نعيد هنا بالتفصيل مراحل

الحياة المشرقة لابن أبي عامر التي أوصلته بسرعة الى أرفع المناصب ، بيد أن هذا السياسي المتوقد الذكاء أظهر أنه قائد بارع وعالم بفنون الحرب ينهض بمشروعاته في عزم ونجاح . وقام المنصور بهجمات متتالية في « جهاده » ضد الممالك المسيحية في الشمال ، وأوقع بها هزائم شديدة ، بل نجح في الاستيلاء على هيكل سانت جيمس الشهير في كومبوستلّا (Santiago) شنت ياقب) وتدميره أثناء الحملة التي قام بها عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ضد جليقية .

ومات المنصور في مدينة سالم يوم ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (٩ أغسطس سنة ١٠٠٢ م) في طريق عودته من حملة فاصلة وجهها الى قشتالة الشمالية . وترك الأندلس سليمة لم تمس ، بل استطاع أن يبسط النفوذ السياسي للأندلس على بلاد البربر الغربية بأسرها ، منتهجاً في هذا السياسة التي سار عليها عبد الرحمن الثالث ، والحكم الثاني .

وكان من أبرع ما حققه المنصور أنه احترم طوال

حياته أبهة الخلافة ، وحافظ على بعض امتيازاتها سليمة
لا تمس من أجل مولاه هشام الثاني الذي كان يحكم
البلاد بالاسم دون الفعل . وأورث هشام نفس
سلطات « الحاجب » الابن الأثير للمنصور عبد الملك
الذي خلف أباه واتخذ لنفسه لقب التشريف
« المظفر » . وظل عبد الملك يتولى السلطة حتى توفي
عام ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م ، انظر مادة « عبد الملك بن
أبي عامر » لمعرفة تفاصيل تاريخ حكمه الذي دام سبع
سنوات) ، وكانت وفاة عبد الملك بن أبي عامر
وحلول شقيقه عبد الرحمن محله إيذاناً بوقوع
اضطرابات وبيلة في الخلافة الأندلسية سرعان ما
عجلت بسقوطها .

٥ - انهيار الخلافة المروانية وتقسيم مملكة الأندلس

أدت سياسة المنصور العسكرية الى إدخال عدد كبير من بربر شمالي إفريقية المرتزقة الى الأندلس ، أصبحوا بعد وفاته و وفاة خلفه بؤرة تموج بالاضطرابات ضد الأندلسيين أنفسهم ، وضد كتلة الصقلية القوية . وقد أشعل فتيل الثورة الرغبة المحمومة التي أبداها عبد الرحمن سانخويلو في أن يعهد اليه بالخلافة بعد الخليفة هشام الثاني (ربيع الأول عام ٣٣٩ هـ = نوفمبر ١٠٠٨ م) ، وقد قوبل هذا العهد باستياء شديد في قرطبة ونفذ أنصار محمد بن هشام بن عبد الجبار المطالب بعرش بني مروان حكم الاعداء في الحاجب العامري قرب قرطبة يوم ٣ رجب عام ٣٩٩ هـ (٣ مارس عام ١٠٠٩ م) إثر مؤامرة دبرتها له (انظر مادة « عبد الرحمن بن أبي عامر ») .

ومرت مملكة قرطبة منذ ذلك الوقت بفترة كانت
نحساً على مصيرها : وعجل بسقوط الخلافة نهائياً
المطالبون بالعرش والمنكرون عليهم هذا الحق يؤيدهم
البربر أو أعداء البربر .

بيان بآخرا خلفاء في قرطبة

- ١ - هشام الثاني بن الحكم الثاني المؤيد بالله ،
تولى من عام ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ (٩٧٦ - ١٠٠٩ م) :
٤٠٠ - ٤٠٣ هـ (١٠١٠ - ١٠١٣ م) .
- ٢ - محمد الثاني ابن هشام بن عبد الجبار المهدي ،
تولى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩) .
- ٣ - سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن
الثالث المستعين ، تولى من سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩) -
٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) .
- ٤ - عبد الرحمن الرابع بن محمد بن عبد الملك بن
عبد الرحمن الثالث المرتضى ، تولى سنة ٤٠٨ هـ
(١٠٨١ م) .
- ٥ - عبد الرحمن الخامس بن هشام بن عبد الجبار
المستظهر ، تولى سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ - ١٠٢٤ م)

- ٦ - محمد الثالث بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الثالث المستكفي ، تولى من سنة ٤١٤ هـ - ٤١٦ هـ (١٠٢٤ - ١٠٢٥ م)
- ٧ - هشام الثالث بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث المعتد ، تولى من سنة ٤٢٠ هـ - ٤٢٢ هـ (١٠٢٩ - ١٠٣١ م) .

أَخْلَاءُ الْحَبُودِيِّينَ

- ١ - علي بن حُود ، تولى من سنة ٤٠٧ - ٤٠٨ هـ .
(١٠١٦ - ١٠١٨ م) .
- ٢ - القاسم بن حُود ، تولى من سنة ٤٠٨ - ٤١٣ هـ .
(١٠١٨ - ١٠٢٣ م) .

ولم تنتظر طوائف الأندلسيين والصقالبة والبربر حتى تنهار الخلافة القرطبية ، بل قسّموا الأندلس الى عدد كبير من الدويلات لم يقدر لمعظمها أن تبقى إلا فترة عابرة ، ولم يبرز من بينها الا كتل سياسية كبيرة قليلة هي ممالك بني عباد في إشبيلية ، وبني الأفطس في بطليوس ، وبني زيري في غرناطة ، وبني ذي النون في طليطلة ، وبني هود في سرقسطة .

٦- ممالك الطوائف حتى معركة الزلاقة

يتميز تاريخ أسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي بالجهود القوية التي بذلت لإعادة الغزو ، تلك الجهود التي استنهضها ملوك مسيحيون من ذوي الهمة والقدرة ، كانوا يدركون يوماً بعد يوم الضرورة الملحة لإعادة توطيد الوحدة القومية على حساب الاسلام . وتاريخ ما حدث في داخل الممالك التي نشأت عن تقطيع أوصال الخلافة الأندلسية تاريخ يبعث بخاصة على الضجر ويفتقر الى الأهمية . وهو ، كما صورته الإخباريون ، يرسم صورة للشغب المستمر ، من مصالح متعارضة الى منافسات ومنازعات دائمة ليس من الممكن دائماً العثور على خيط نهدي به في خضمها . والحق ان الجماعات الشعبية التي تنتمي

اليها الأسرات الحاكمة ، والتي بقيت بعد غيرها من
الجماعات التي . استوعبها خصومها الأقوياء ، قد
احتدم الخلاف بين بعضها البعض ، فحارب
الأندلسيون البربر ، وحارب الصقالبة الطوائف
معاً . ولم يمض وقت طويل حتى تبدد الأمل في
استعادة الخلافة ، وأثار الضعف المتزايد لكل دويلة من
هذه الدويلات شهوة الملوك المسيحيين الذين كانوا
يتقاضون منها جزية باهظة ، وانتهج هذه السياسة
بصفة خاصة الملك ألفونسو السادس الذي نجح بحيلة
السياسي البارع في احتلال طليطلة دون إراقة دماء
(سنة ١٠٨٥ م) وفي أن يقيم من نفسه حكماً يفض
المنازعات بين ملوك الطوائف .

واستفحل الخطر فاضطر ملوك الطوائف ، راغبين
أو كارهين ، الى طلب المساعدة من المرابطين ،
وجاءت لحظة التحول الحاسمة بتدخل جيوش شمالي
افريقية بقيادة الأمير يوسف بن تاشفين الذي هزم قوات
ألفونسو السادس في موقعة الزلاقة (أنظر هذه المادة)

يوم ٢٢ رجب عام ٤٧٩ هـ (٢ نوفمبر سنة ١٠٨٦ م)
ولم تكن ثمة متابعة لهذا النصر ، اذ سرعان ما
سثم يوسف بن تاشفين مشهد الانشقاق يمزق صفوف
الملوك الأندلسيين وعقدتهم اتفاقيات صلح مع الملوك
المسيحيين ، فخلعهم عن عروشهم واحداً بعد
الآخر ، وضم القسم الأكبر الى ممتلكاته .
وأصبحت الأندلس منذ ذلك الوقت ولاية تابعة
للمغرب .

٧- الأندلس في عهد المرابطين

تم احتلال المرابطين للأندلس بالاستيلاء على بلنسية سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) التي كانت قد سقطت في يدي السيد القمبيطور رودريكو دياز سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وبتسليم سرقسطة قصبة آل هود عقب وفاة المستعين سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) . ثم صادفت الأندلس ، على الرغم من سيطرة جماعة الفقهاء ، عدة عقود من الرخاء تميزت بنجاح لا نزاع فيه أحرزته جيوش المرابطين (انتصار أقليمش عام ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) التي لم تستطع مع ذلك أن تستعيد طليطلة . وسقطت سرقسطة نفسها في يدي ألفونسو المحارب سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وازداد ضغط النصارى على الأندلس وحقق نجاحاً أعظم لأن ابن

يوسف بن تاشفين وخلفه سرءسان ما أصبح عاجزاً عن
إبداء مقاومة جادة لمظاهر الثورة التي كانت تبدو من كل
جانب . وحن الوقت لتغيير آخر في من يحكمون
الأندلس (انظر مادة « المرابطون ») .

٨ - الأندلس في عهد الموحدين وتقدم إعادة الغزو

مضت فترة دامت ثلاثين عاماً في منتصف القرن الثاني عشر ، تبلورت خلالها بعض الحركات واتخذت نموذجاً جديداً من «ممالك الطوائف» ، ثم خضعت الأندلس لسلطان أسرة بني عبد المؤمن في مراكش . وظلت قبضة الموحدين مقلقلة ما يقرب من قرن على تلك الاجزاء من شبه الجزيرة التي كانت لا تزال تتبع العالم الاسلامي . وكانت حركة إعادة الغزو تكسب أرضاً جديدة كل عام ، فقد احتل رامون بيرنكير الرابع في قطالونيا مدينة طرطوشة ، ثم مدينة لاردة ، ولكن المخطط الأكبر لحركة إعادة غزو الأندلس ، كان هو ألفونسو الثامن ملك قشتالة (١١٥٨ - ١٢١٤ م) الذي استولى على شلب ويابرة وقونكة . ولم يكن

لانتصار المسلمين في وقعة الأرك على يد الخليفة
الموحدي أبي يوسف يعقوب في ٨ شعبان عام ٥٩١ هـ
(١٨ يوليو سنة ١١٩٥ م) أثر باق ، ذلك أنه لم يكد
يمضي عليه أقل من خمسة عشر عاماً حتى تحالف
النصارى وأنزلت جيوش مشتركة من قشتالة وليون
ونبارة وأراغون هزيمة ساحقة بالمسلمين في وقعة العقاب
(لاس نافاس دي تولوزا) يوم ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ
(١٧ يوليو سنة ١٢١٢ م) أعقبها سقوط ابدة
وبياسة . وتم الاستيلاء على قرطبة بعد أقل من ربع
قرن ، وأعقبه استيلاء جاك الأول ملك أراغون على
بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، وفرديناند الثالث
على إشبيلية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)

٩- المملكة النصرية في غرناطة ونهاية عهد الغزو

استمرت « مملكة غرناطة » أكثر من قرنين ونصف قرن الأرض الوحيدة في شبه جزيرة إيبيريا التي ظلت تخضع لسلطان حاكم مسلم على الرغم من الأجزاء المتتالية التي اقتطعت منها ، وهذه المملكة التي يحدها البحر المتوسط من جبل طارق الى المرية لم تمتد في الداخل الى ما وراء كتل جبال شاربات رندة وشاربات إلبيرة . واستولى جد الأسرة النصرية (أو بنو الأحمر) ومؤسسها محمد الأول الغالب بالله ، على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ - ١٢٣٨ م) وشيد قلعة أطلق عليها اسم الحمراء واتخذها قصراً له . ورضى في الوقت نفسه أن يؤدي الجزية بعنبره تابعاً لفرديناند الأول ملك قشتالة ، ثم خلفه ألفونسو العاشر . ومنذ

ذلك الوقت كانت سياسة ملوك غرناطة تقوم على تحقيق توازن حرج في تحالفهم مع النصارى ، أو مع بني مرين في مراکش الذين تدخلوا عسكرياً في أرض الأندلس واحتلوا مراكز معينة مثل طريف . وأثبتت الحوادث شيئاً فشيئاً أن التعاون المراكشي كان وهماً من الأوهام . فقد لقي السلطان أبو الحسن هزيمة منكرة على وادي سليط سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) . وظلت غرناطة تحتفظ بشيء من هيبتها بوصفها عاصمة ، وبفضل آثارها وندواتها الأدبية التي برز فيها رجال من أمثال لسان الدين بن الخطيب . وفي القرن التالي ، ومع ظهور الملكين الكاثوليكين فرديناند الأراغوني ، وإيزابلاً ملكة قشتالة ، أصبح هجوم النصارى يتم في تناسق تام ويوجه على نطاق واسع . فسقطت لوثة عام ١٤٨٦ م ، وبالش - مالقة والمرية في العام التالي ، وبسطة عام ١٤٨٩ م . وأخيراً استسلمت غرناطة للملكين الكاثوليكين في ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧ هـ (٣ يناير سنة ١٤٩٢ م) .

[ليفى بروفنسال F. Lévi —

ملحق : الأندلس في شمالي أفريقيا

كلمة « الأندلس » - من حيث هي اسم جنس - مشهورة بخاصة في مصطلح شمالي افريقية ، حيث تدل على ذلك العنصر من السكان المسلمين الذي ترجع أصوله الى أسبانيا . والعنصر الأندلسي بصفة عامة لا يظهر ظهوراً بارزاً الا ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً ، ولكن الأمر هنا لا يقتضينا أكثر من التعرض لذروة اتجاه تاريخي طويل .

وفي خلال التاريخ الاسلامي في أسبانيا ، كانت الهجرة الى المغرب في كثير من الأحوال وسيلة من وسائل سكان الأندلس للمخلاص من أزمة داخلية . ثم ان المصالح التجارية والخارجية الأندلسية لعبت أيضاً دوراً كبيراً في وفود العناصر الأسبانية الاسلامية الى المناطق الساحلية في غربي بلاد المغرب ووسطها .

ومنذ منتصف القرن الثاني عشر تقريباً ، وحين كانت الكوارث التي نزلت بالمسلمين في غربي الأندلس سبباً في تدفق سيل من المهاجرين على قصر الكتامة (القصر الكبير) ، ثبت أن تقدم إعادة الغزوله أهمية متزايدة ، ولو أنه لم يكن بأي حال من الأحوال السبب الوحيد للهجرة الى شمالي افريقية . وازدادت حركة الهجرة انتشاراً ، بازدياد تفكك أسبانيا الاسلامية ، حتى القرن الخامس عشر ، وهنالك وقعت الأحداث الخطيرة التي أُنذرت بسقوط غرناطة ، وقد ثبت أن هذه الأحداث كانت بداية حركة تشتت حقيقية أحدثت في شمالي إفريقية آثاراً لها قيمتها .

وما إن انتهى القرن السادس عشر حتى كان عدد الأندلسيين المبعدين عن وطنهم الى أرض المغرب كبيراً الى الحد الذي يمكن اعتبارهم معه أقلية لها شأنها بين سكان المغرب .

وحل القرن السابع عشر ، وجاء معه بتطورات جديدة ، ولن يمضي بنا وقت طويل حتى نرى نتيجة

طرد العرب الأسبانيين جملة ، ويقال ان أعداداً كبيرة انطلقت من الموانئ التي أقلعوا منها الى فاس وتلمسان ، ولكن نسبة كبيرة من هؤلاء تعرضت للموت أو للسلب والنهب بأيدي القبائل العربية . ونجح كثير من الآخرين في الانضمام الى مواطنيهم في الجزائر وفي تونس حيث كان عثمان داي يشجع على انتهاج سياسة الهجرة ، فكان المهاجرون يتدفقون عليها زرافات .

ويمكن رسم صورة تفصيلية لا بأس بها للأندلسيين الذين استقروا على هذا النحو في تونس في القرن السابع عشر . لقد كانت حالتهم تختلف الى حد ما عن حالة أسلافهم في القرن الثالث عشر الذين اشتهروا بالدور السياسي العظيم الذي قاموا به في الدولة الحفصية ، وظهروا في صورة جماعة متفردة منظمة تنظيماً عالياً تخضع لرئيس يسمى « شيخ الأندلس » ، ويبدو أنهم قد تمتعوا في مجتمعاتهم القروية ببعض الحقوق الشرعية وحظ كبير من الاستقلال في الحكم

المحلي . وليس من شك في أن احتكار صناعة « الشاشية » الناجحة والمنظمة تنظيماً جيداً قد أتاحت لهم تعديل النظام الاقتصادي حتى أصبح « أمين الشواشة » قانوناً هو أمين التجارة ، يرأس محكمة تجارية تخضع لها كل الطوائف الحرفية ، وكان أعضاؤها - فيما عدا اثنين فقط - يختارون من الشواشة الأندلسيين . وفي مجال الزراعة انصرفت مهارة الأندلسيين ، التي احتضنها عثمان داي المثقف ، الى استغلال الأراضي الخصبة في الشمال ، حيث طبق العرب الأسبانيون باقتدار معرفتهم بالري وأساليب الزراعة الفنية على زراعة الأشجار وفلاحة البساتين . وكان انتاج الحرير الخام ونقله وصناعة الأقمشة والمنسوجات والسلع الموشاة في القرنين السادس عشر والسابع عشر من الخصائص الكبرى التي تميز بها المنفيون ، مثال ذلك أن صناعة الحرير في الجزائر كان معظمها في أيديهم ، وقد أسهمت إسهاماً كبيراً في ثراء المدينة . ومن جهة أخرى فإن الكثير مما يمكن أن

يكونوا قد أسهموا به في المغرب قد ضاع . وفي
مراكش ، مثلاً ، كان السعديون ينشدون غالباً
الاستفادة منهم قوة عسكرية . وبالنسبة للباقيين يعد
اشتغالهم بالقرصنة وتجارة الرقيق مسئولاً لا محالة عن
اختفاء المهارات الماثورة . ومهما يكن من أمر فإن
آثارهم لا تزال باقية في كثير من المجالات ، وكثير من
أهالي شمالي إفريقيا يعلنون في فخر انهم من أصل
أندلسي ، وهو أمر واضح في كثير من الحالات من
أسماء أسرهم .

(باريس سنة ١٩٥٥ ، الفهرس .

[ج . د . لاثام J . D . Latham

سابعاً - الاسلام في الأندلس

كانت الأندلس دائماً معقل المالكية وقاعدة للمسنية منذ مستهل القرن التاسع عندما اعتنق مذهب المدينة وحل محل مذهب الأوزاعي . ولم يكن هناك احتمال بتوطيد دعائم شعائر أخرى في العهد المرواني ، لأن المذهب الجديد كان يلقي تأييداً رسمياً من حكام البلاد ، وقمعت كل نزعات الخوارج والشيعة في مراحلها الأولى ، ولم يستطع الأندلسيون أن يوجهوا نشاطهم في مجال الكلام والفقه إلا نحو التوسع في رسائل الفروع والتمسك الدائم بالتقليد . ومهما يكن من أمر فإنه من الواضح أن مدرستي الشافعية والظاهرية تسلتا في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) ، وإن كان من المسلم به أن هذا قد

حدث بصورة طفيفة ، وكان ممثل المدرسة الظاهرية في الأندلس القاضي المنذر بن سعيد البُلوطي المتوفى عام ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) حتى وجدت « حامل لوائها » في شخص ابن حزم (انظر هذه المادة) المشهور . وكذلك كان واضحاً أن مذهب المعتزلة قد صادف بعض الانتشار في بعض العهود ، وهو يطابق ما حدث من إحياء لنزعات الزهد التي كان ممثلها الأساسي هو الفيلسوف القرطبي ابن مسرة (أنظر هذه المادة) المتوفى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)

أما الممثلون للمالكية الأندلسية الذين وصلت إلينا أسماءهم وبلغتنا مصنفاتهم أحياناً ، فإنهم جمع كبير . وكلهم تقريباً كتبت نبذ عن سيرهم في المجموعات التي نشرت في المكتبة الأندلسية : (Bibliotheca arabico Hispana) فلما سقطت الخلافة تمسك الناس بالشرعية وقدروها أكثر من ذي قبل ، وكثيراً ما أصبحت طبقة الفقهاء قسماً من السكان يتمتع بأكبر قدر من النفوذ والنشاط وبخاصة في عهد المرابطين .

ويمكن القول بأن الأندلس ، من وجهة نظر العقائد ،
لم تتأثر بدعاية الموحدين إلا نادراً ، وظلت للمالكية
فيها اليد العليا حتى النهاية .

[ليفى پروفنسال E . Lévi — Provençal]

ثانياً - الفن الأندلسي

لقد كانت شبه جزيرة إيبيريا منذ العصور القديمة
طقة صالحة لنمو المؤثرات الشرقية فيها ، بفضل
قعها الجغرافي الذي يحيط بالطرف الغربي للبحر
توسط ، وبفضل غلبة خصائص منطقة هذا البحر
ليها . وشاهد ذلك قول سارتون بأن توافر دين
شترك ولغة مشتركة - وهما العاملان اللذان يحدثان
وى الروابط بين الشعوب - قد دعم العلاقات بين
نطقتين ، وهي علاقات أفادت أيضاً من الفرض
مديني الذي قضى بالحج الى مكة .

ووصلت الاتجاهات والأشكال الفنية الى شبه
لجزيرة الإيبيرية من الشرق عبر فترة امتدت ثمانية
رون ، وبعض هذه الاتجاهات نمت فأصبحت أسمى

درجةً وأفسح مدىً مما كانت عليه في بلدها الأصيل .
وفي الفن الأندلسي أصداً من الفن البوزنطي ومناطقه
الثقافية في الشام وبلاد ما بين النهرين وفارس ومصر
 وإفريقية . وصيغ فن العصور الوسطى في الشام وفي
أرض شبه جزيرة إيبيريا على غرار فن رومة
الأمبراطورية . وإن رجوع بعض أشكال الآثار الفنية
في هذين القطرين الى زمن واحد يشير أحياناً الى
أصلهما المشترك ولا يدل على وجود علاقة مباشرة بين
الاثنين . ومع ذلك فإن الحضارة في شرقي البحر
المتوسط قد تطورت دون ان يوقفها شيء منذ القرون
الأولى للعصر المسيحي وأثناء القرون الأولى من
الاسلام ، على حين ان شبه جزيرة إيبيريا والغرب -
بصفة عامة - قد كابدوا أزمات شديدة وتعرضوا لانحلال
كبير في معيار حضارتهما .

ولا نعرف كثيراً من التفاصيل عن مرحلة انتقال
أسبانيا من حكم القوطيين - حين تجلى افتقارها الى
التجانس واضمحلالها من ضعف مقاومتها للغزاة - الى

حكم المسلمين . ففي المجال الفني تعوزنا التحف الفنية والآثار الباقية من هذا العهد الغامض والعصور الإسلامية التالية له ، ونشأ عن هذا ان الثغرات في كثير من الحالات يجب ان تسد عن طريق الحدس والتخمين .

وقد تطور الفن الأندلسي واتخذ له طابعاً أصيلاً مميزاً . وحدث أثناء فترة الاتصال بالشرق بين القرنين الثاني والتاسع الهجريين (الثامن والخامس عشر الميلاديين) أن شيدت هناك بعض الآثار التي تنفرد بجمال لا يضارع ، وكمال وأصالة لا نجدها بقيت في أي بلد اسلامي آخر . فمسجد قرطبة المتفرد ببناؤه البارع وبثراء زخرفته ، وقصور مدينة الزهراء التي لا تُسامى في فنها وفخامتها ، وقصر الجعفرية في سرقسطة ، الذي يمتاز بإبداع عجيب وبذخ في زخرفته ، والذي يجري العمل في الوقت الحاضر لاستعادة بنائه ، وبوارج الخيرالدة ، وهو منارة أثرية تعد من أجمل الآثار في العالم الاسلامي ؛ وأخيراً هناك

قصر ضخّم هو قصر الحمراء في غرناطة ، لا يزال
محفوظاً بحالته على نحو عجيب على الرغم من رهافته
الشديدة ، وقد تجمع فيه فن العمارة وبدع الطبيعة من
ماء جار وخضرة يانعة لتجعل منه مشهداً من أعظم
مشاهد العالم إلهاماً .

العمارة

الأمويون : ومع افتقارنا الى العمائر القديمة ، فاننا يجب ان نبدأ دراسة العمارة الاسلامية في الأندلس من أقدم جزء في مسجد قرطبة الذي شيده عبد الرحمن الأول بين عامي ١٦٨ و ١٧٠ هـ (٧٨٤ - ٧٨٦ م) أي في فترة تبلغ ثلاثة أرباع القرن بعد غزو شبه الجزيرة وفتحها . وقبل وفاة هذا الأمير لم يكن باقياً على اكتمال بناء المسجد إلا اللمسات الأخيرة ، وقد قام بإتمامها ابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ = ٧٨٨ - ٧٩٠ م) .

ويحتل هذا المصلى القديم الجانب الشمالي الغربي من البناء الذي لا يزال قائماً حتى اليوم . والمسجد مستطيل الشكل ، وجدرانه من الحجر ، وهو مقسم الى احدى عشرة مقصورة تتجه من الشمال

الى الجنوب بحيث تكون عمودية على جدار القبلة ،
والمقصورة الوسطى أكبر من المقصورات الأخرى ،
وفصل المقصورات بعضها عن بعض أعمدة من
الرخام أخذت من المباني الرومانية او القوطية
الغربية . وعلى التيجان ترتكز حدائر مربعة الشكل ،
وهي بدورها تحمل حجرية مستطيلة . والتواء محمول
استعراضاً بوساطة مساند بارزة وينتهي من أعلى
بحذيرة . ودعائم العقود متصلة طولياً بصفين
من العقود . والعقود السفلى على شكل حدوة
الفرس ، وهي معلقة ولا تدعم شيئاً ، وفوقها صف
ثاني من عقود شبه دائرية تبرز من الحدائر وتحمل
الجدران .

وباستخدام هذه الطريقة في البناء أمكن إقامة بناء
ضخم على أعمدة رشيقة مع الاستفادة الى أقصى حد
من المساحة الداخلية وتحقيق رؤية المؤمنين للامام
بوضوح ، وهو يؤمهم في الصلاة . ولما كان عرض
الدعائم قد زاد بالنسبة لارتفاعها ، فقد أصبح من

الميسور أن تحمل الأسقف وأن توضع في سمك الجدران
ميازيب لتصريف مياه المطر .

وطريقة البناء بعقود مزدوجة متراكبة مما يضيفي على
مسجد قرطبة جمالاً أصيلاً وطابعاً فريداً في عمارة
القرون الوسطى لا نجدهما في أي مسجد آخر ، ففي
المساجد الأخرى ذات الأعمدة تحمل العقود التي
تفصل المقصورات عروق خشبية تضيفي عليها مظهر
المباني الموقوتة . ومن عجب أننا نجد في قرطبة في
النصف الثاني من القرن الثامن مثل هذا البناء
الكامل ، نظراً للعجز الظاهر في المهارة المعمارية الذي
يوحى به استخدام أعمدة كانت أصلاً في عمائر أقدم
عهداً .

وقد بذلت محاولات متكررة لاثبات أصل هذه
الأشكال ، ويمكن أن تكون طريقة استخدام العقود
المزدوجة قد استلهمت من المنشآت الرومانية
المعمارية ، كالقناطر المعلقة مثلاً . وقد استخدم الحجر
مادة للبناء في العمارة الشامية ، وكذلك في العمارة

القوطية الغربية بأسبانيا . وكثيراً ما نجد ترتيب
الحجارة المنحوتة على التعاقب واتخاذها رباطاً مائلاً في
العمائر الرومانية في الشرق والغرب ، وقد ورثت ذلك
من العمائر اليونانية . وعممت العمارة القوطية الغربية
استخدام عقد حدوة الفرس ، وتوجد نماذج منه في
العمارة الرومانية والاسلامية الشرقية ، وإن كانت أقل
منها في شبه الجزيرة . وكان الاستخدام المتبادل للحجر
والآجر في سنجات العقود شائعاً في العمارة الرومانية ،
وعنها نقلته العمارة البوزنطية .

وتكمن أصالة مسجد عبد الرحمن الأول في خطة
بنائه وتنسيقه العام بما يضمنه من مقصورات متوازية
عديدة وزيادة المقصورة الوسطى في الحجم عن
الأخرى كما هو الحال في المساجد الشرقية ، وربما
يكمن ذلك أيضاً في عضائد الجدار ، بل لعله يكمن في
الحزوز المدرجة التي تتوجهها .

وقد اقتضى ازدياد السكان في قرطبة في عهد عبد
الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ - ٨٥٢ م)

توسيع المسجد ، وامتدت رقعة المقصورات جنوباً بهدم
المحراب ، ونقب جدار القبلة . والجزء الذي أضيف
يتبع خطوط البناء القديم ، ولكننا نجد من بين العدد
الكبير من التيجان التي أخذت من العماثر الأقدم منه
أحد عشر تاجاً نحتت بإتقان لهذا الغرض واستلهم في
نحتها الناذج القديمة الماثورة . وهناك أربعة تيجان من
المحراب نقلت بعد الى مسجد الحكم الثاني ، وهذه
التيجان الأخيرة لا تقل إتقاناً عن التيجان الرومانية ،
وهي تدل على وجود مصنع يعمل به نخبة من الصانع
المهرة . وبدأت هذه الأعمال عام ٢١٨ هـ (٨٣٣ م)
وأول صلاة أقيمت في المسجد قبل بناء المحراب
الجديد كانت سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) ، ولكن البناء
لم يكن تم عند وفاة عبد الرحمن الثاني ، وقد أكمله
ابنه وخلفه محمد الأول عام ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) وهو
تاريخ يظهر في نقش على باب القديس اسطفان الذي
استلهم الفنان في زخارفه المستدقة ولا شك موضوعات
الفسيفساء الرومانية ، وهذه الزخارف من الطراز

البوزنطي .

وترك عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ = ٩١٢ - ٩٦١ م) في المسجد الجامع تذكيراً لحكمه الطويل المجيد بتشييد مئذنة أثرية جديدة سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) مربعة القطاع مثل المآذن الشامية .

وبويع عبد الرحمن الثالث بالخلافة عام ٣٢٦ هـ (٩٣٦ م) وبدأ في بناء المدينة الملكية المعروفة باسم مدينة الزهراء عند سفح الشارات على مسيرة أقل من خمسة أميال من قرطبة ، وسار العمل في تشييدها قدماً حتى عام ٣٦٥ هـ (٩٧٦ م) ، وهي مدة قدرها أربعون عاماً بلغت فيها عظمة الخلافة الأندلسية وسلطانها ذروتها ، كما تشهد بذلك الأطلال المشوهة لقصور هذه المدينة مقر البلاط وعمال الحكومة ، وتوسيع مسجد قرطبة بناء على ما أشار به الحكم الثاني .

وأجزاء مدينة الزهراء التي كشف عنها حتى الآن هي أطلال المساكن المبنية بالحجر والدواوين وقاعات

الاستقبال . وتقع هذه القاعات في نهاية أفنية وتتألف من عدة مقصورات متوازية تفصلها عقود على هيئة حدوة فرس قائمة على أعمدة على نسق البازيليكا الكبيرة الشائع في الشرق ، وفي سبيل زخرفتها تأججت نفسا الخليفتين بنار الطموح ينشدان إقامة عمائر لا نظير لها بذخاً وفخامة ، فجلبا لتحقيق ذلك موادَّ وصناعاتاً مَهرة من الطرف الآخر للبحر المتوسط . ولقد زالت الأسطح والسقوف ، ذلك أن مدينة الزهراء نهبت وأحرقت عدة مرات في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر ، واستخدمت فيما بعد محجراً حتى عهد قريب ، ولكن لا يزال فيها جانب من الأوجه الحجرية والرخامية لجدران كثير من الحجرات ، والعديد من الأعمدة والتيجان من المواد نفسها ، ورُصِفُ من الحجر والرخام والآجر . ووجه هذه المباني الرائع الزخرف عهد به الى صناعات مَهرة بعضهم جاء من شرقي البحر المتوسط ، صحيح أنهم كانوا على درجة مختلفة وأساليب فنية متباينة في أشغال

الحجر والرخام ، بيد أنهم كانوا بصفة خاصة عارفين بالخصائص العامة للنقوش البارزة ذات البعدين التي تعتمد على وحدات زخرفية نباتية (هناك بعض الوحدات الزخرفية الهندسية البسيطة القليلة التي ترجع الى أصل بوزنطي) ومعظمها لم يبعد كل البعد عن موضوعات الكروم وشوك اليهود التي اشتقت منها . وهناك قاعة فخمة اكتشفت عام ١٩٤٤ ، والعمل يجري حالياً في إعادة بنائها ، لأنه وجد بين أطلالها كثير من النقوش البارزة من الأوجه المزخرفة للجدران الداخلية ، وقد زخرفت منذ عام ٣٤٢ هـ الى ٣٤٥ هـ (٩٥٣ - ٩٥٧ م) .

واشتغل الصناع المهرة أنفسهم الخارجون من قصور الزهراء في توسيع المسجد الجامع في قرطبة ، وهذا العمل الذي شرع فيه الحكم الثاني قد بدىء في تنفيذه عام ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، وأكمل الجانب الرئيسي منه عام ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) ، وكان لصناع الفسيفساء الذين طلبوا من امبراطور بوزنطة فضل في زخرفته ؛

وهناك أثر شرقي ملحوظ في القبوات الأربع للعقود المتقاطعة في الامتداد على الرغم من أنه لم يكتشف بعد في الشرق نموذج يضارعها ثم في تاريخ أقدم منها .

والراجح ان الزيادة في ارتفاع جدران بعض النوافذ لإفساح المجال لإقامة مشكاوات قد أخذ عن مساجد افريقية في القرن التاسع على الرغم من أن عقود هذه المساجد من أصل بوزنطي . والعقود المتقاطعة بالتساوي في المسقط الأفقي وليس في الفراغ في مخيمات مكشوفة تحمل القباب بأسلوب فني في الانشاء عبقرى بارع . وبعض العقود المتوجة من أصل عباسي ، وهناك أيضاً عدد من العقود المنقوصة . وأصبحت العقود المتوجة منذ ذلك الوقت تتصل بعقود متقاطعة ، وهذا هو أحد الموضوعات المحببة في الفن الأندلسي ، وكانت تستخدم للرخرفة فحسب جرياً على عمل شائع في الفن الاسلامي بأسره غير أنه بلغ أوجه في الأندلس .

وفي هذا التوسع الذي يرجع الى عهد الحكم الثاني

والذي يعد في الواقع مسجداً جديداً ملاصقاً للمسجد الأصلي ، أشكال زخرفية خارقة في روعتها ممتزجة ببريق وهاج من الألوان تغطي الجدران والقبوات المصنوعة من الفسيفساء الجياشة بالحياة ، مع « توريقات » عربية نُحت معظمها في الصخر وُطلي مهّدها باللون الأحمر وعليه نقوش بضروب أخرى من اللون الأزرق ، ورخام معرّق في الأعمدة وقواعدها . ومسجد الحكم الثاني - مثل قاعة عبد الرحمن الثالث في الزهراء - شاهد على فن يستخدم موارده الى أقصى حد ، فن بلغ الذروة ، فن يعبر عن عظمة الخلافة في قرطبة تعبيراً لا نجد له نظيراً في الغرب المعاصر له .

والتوسيع الثالث والأخير الذي طرأ على هذا المسجد الجامع هو الذي شرع فيه المنصور الواسع النفوذ وزير هشام الثاني ، وقد نفذ بين عامي ٣٧٧ و ٣٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) . وحافظ على وحدة الكل بتكرار دعائم العقود والعقود المتشابكة وبنائها على غرار

المنشآت الأصلية دون إضافة أية سمة جديدة ، ولكن هذا التوسع جاء دون الأصل فخامة وطرزاً . وتكشف الأبواب عن عمل بذل لتوحيد الأساليب الفنية المختلفة للزخرفة التي تظهر بوضوح في مدينة الزهراء ، وإن كانت النتيجة تثير في النفس الكآبة والملل .

ولا تزال هناك آثار قليلة للعمل الذي تم خلال عهد ملوك الطوائف في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) . وتدل النصوص والآثار التي بقيت على أن التقسيم ، في المساجد الى مقصورات عمودية على جدار القبلة مع التوسل بعقود على هيئة حدوة فرس مُقامة على أعمدة ، يتكرر . وقد جنح أمراء الطوائف الى تشييد القصور أكثر من جنوحهم الى إقامة دور للعبادة ، ذلك انهم عجزوا عن مجاراة أسلافهم حكام الأندلس الموحدة في السلطان أو في الثراء ، بيد أنهم حاولوا محاكاتهم ، على الأقل من ناحية الظاهر ، في قصورهم الفاخرة . وشيدوا ، بدل الجدران المبنية بالحجر الصلد ، جدراناً

بنيت بالطين والآجر ، وحلت محل أوجه الحجر والرخام المزخرف بطريقة التوريق والزخرفة في الجص ، واستبدل بالأعمدة الرخامية أعمدة خشبية كما يرى في قصر القصبة بمالقة . وهكذا يخفي تعدد الألوان فقر الداخل تحت نقاب زائل من البذخ والأبهة . وكان النقص في الفخامة والمتانة والافتقار إلى العظمة المعمارية لا يعوضهما المظهر الجميل اللطيف الذي اتسمت به مباني القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فحسب ، بل يعوضهما أيضاً إدخال الماء الجاري في القاعات والأفنية ، وغرس النباتات في الأفنية ، ولا شك أن ذلك كان بتأثير الشرق ، عن طريق إفريقية فيما يحتمل .

والفن الزخرفي الذي كان ينشد إخفاء الفقر في بناء هذه القصور كان هو قد صحبه . تطور نحو الفن الباروكسي ، وهو فن إسباني في جوهره ، وذلك بتحويل العناصر المعمارية لقرطبة ومدينة الزهراء الى عناصر أخرى زخرفية بحث تقوم على أشكال متشابكة

ومعقدة وزخارف غزيرة .

والقصر الذي بناه المقتدر بن هود (٤٤١ - ٤٧٤ هـ
= ١٠٤٩ - ١٠٨١ م) بجوار سرقسطة مباشرة يمثل
خير تمثيل الفن الذي عرف عن عصر ملوك الطوائف .

وكان القرن السادس الهجري (الثاني عشر
الميلادي) - أي في الفترة التي بسط فيها المرابطون
والموحدون سيادتهم على الأندلس - من أخصب
العصور في الفن الاسلامي المغربي ، وهو في الوقت
نفسه من العصور التي حدث فيها أعظم تمثل للأشكال
التي خرجت من شرقي البحر المتوسط .

وظل المرابطون - وهم أولئك البدو البربر من
افريقية الذين خلا وفاضهم من التقاليد الثقافية - على
هامش النزعة الفنية ، بيد ان الاتحاد السياسي بين
الأندلس وبلاد البربر فترة تربو على قرن (القرن
السادس = الثاني عشر الميلادي ، والسنوات الأولى من
القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي) ،
وهو الاتحاد الذي تم أولاً في عهد المرابطين ثم في عهد

الموحدين ، انتهى الى انتشار الفن الأندلسي عبر مضيق جبل طارق الى أقاليم تغلب عليها الحضارة الريفية وليست فيها مراكز حضرية كبيرة (انظر مادة « المرابطون » ، القسم الخاص منها بالفن) .

ويكشف بناء مساجد المرابطين ما طرأ عليها من تغييرات بالقياس الى المساجد الأندلسية الأولى ، ولعل هذا كان نتيجة لتأثير بلاد ما بين النهرين . فبدلاً من الأعمدة - التي كانت حتى ذلك الوقت تفصل المقصورات - بنوا عمداً من الآجر ، وأدى هذا الى ازدياد رسوخ البناء وأتاح لهم فرصة الاستغناء عن العروق الخشبية ، وان كان هذا قد أدى أيضاً الى فقدان في مساحة الفراغ وضعف في وضوح الرؤية . ويبدو المصلّى المشيّد على دعائم من الآجر دائماً كثيباً ومملاً إذا قورن بالمصلّى الذي يقوم على أعمدة .

ولم يبق في الأندلس مسجد واحد من المساجد التي بناها المرابطون . ولعل المساجد الجامعة في تلمسان والجزائر ، الخالية أصلاً من الزخارف ، قد شيدت في

السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) قبل أن يصل التأثير الأندلسي الى الشاطئ الافريقي . وقد حدث هذا في عهد علي بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ = ١١٠٦ - ١١٤٣ م) ، فقد ازدان خلاله المسجد في تلمسان بزخارف أندلسية رائعة وغزيرة تكسو وجه المحراب والجدران وقبة المقصورة السابقة له . وقد أكملت هذه الزخرفة في قول نقش بخط النسخ هو جزء من هذه الزخرفة ، سنة ٣٥٠ هـ (١١٣٦ م) .

وقام علي بن يوسف حوالي عام ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) بتوسيع مسجد القرويين في فاس ، وهو لا يزال محرماً على غير المسلمين ، وفي هذا المسجد عقود متقاطعة من الواضح أنها من أصل قرطبي وقبوات من المقرنصات (في الأنسابية mocarabes) يرجع أصلها الى بلاد الفرس او العراق ، وهي تعبر بعض المقصورات . والحق ان ما تتسم به هذه الزخرفة من كمال عجيب يكشف عن أن هذا العمل لم يكن

التجربة الأولى في ممارسة هذه العناصر المجلوبة من الخارج .

وخير ما يمثل أسلوب المرابطين في الزخرفة هو قبة البروديين بمراكش ، ولعلها شيدت بين عامي ٥١٤ و ٥٢٦ هـ (١١٢٠ - ١١٣٠ م) . والجزء الأوسط من هذا البناء الصغير المستطيل الشكل تغطيه قبة صغيرة من الآجر المقوّس . وفي داخل القبة ثمانية عقود متقاطعة على هيئة تشبه عقود القبة التي تغطي المقصورة التي قبل المحراب في مسجد قرطبة . والعقود مختلطة الخطوط في هذا النموذج المراكشي ، وتتألف من تيجان وقِسيّ وزوايا قائمة ، والأوجه التي تضمها بين مستويات عقودها يكسوها - مثل كل الأوجه الأخرى تقريباً - توريق دقيق من الجص يحيط بمراوح كبيرة . وهذا صنع أندلسي يتميز بفخامة فوق التصور وخيال خصيب ، وهو يعبر بأسلوب بليغ عن النزعة المناهضة للكلاسية الى التجزئة والاسراف في الزخرف ، وهي النزعة التي تنبثق في مواسم في مجرى تاريخ الفن

الأندلسي .

أما الموحدون الذين كانوا مثل أسلافهم يفتقرون إلى التقاليد الثقافية ، تحكمهم نزعة الزهد التي تملكهم وأنكرت كل ترف وكل إسراف بما يتفق مع حركة تهدف إلى إحياء ما كان عليه الإسلام في أول عهده من طهرونقاء ، فقد أثرت نزعتهم هذه في التطور الفني بوضع قيسود صارمة على الزخرفة ردتها إلى ضروراتها الجوهرية ، وجعلت لها نطاقاً محدداً تحديداً دقيقاً يقوم على أسس عامة بسيطة (أنظر مادة « الموحدين » ، القسم الخاص بالفن) . ولم يبق مصلًى واحد مما بناه الموحدون في الأندلس ، ولذلك فإننا لا نعرف هل امتدت هذه الخصائص إليها أيضاً ، وبقايا المسجد الجامع في إشبيلية الذي أكمل بناؤه في عهد يعقوب المنصور (٥٧٢ - ٥٩٤ هـ = ١١٧٦ - ١١٩٨ م) تحملنا على أن نفترض أنها تكشف عن زخارف أفخم من الزخارف التي أبقى عليها الزمن في المغرب .

وأثر الموحدون في التطور الفني في نواحٍ أخرى أيضاً ، فقد ألهمهم ذكرى ما كانت عليه الخلافة القرطبية من عظمة ماثلة في عمائرهم فشيدوا مساجد ضخمة رُوعي فيها تناسق النسب وحسن التخطيط ، ومآذن متينة عالية ، وأبواب مدن تتسم بالكبر ، وأقواس نصر حقيقية تكريماً لأسرتهم المالكة .

ويظهر في بقية قصور المرابطين والموحدين طرازان من الألفية بلغا فيما بعد درجةً معجبة من التطور في فن غرناطة : الطراز الأول هو الفناء ذو السيلين المستعرضين يحدثان أربعة أحواض مربعة للنباتات وتبرز على الجوانب القصيرة جواسق (القصر الصغير في مرسية القديمة) ، والطراز الثاني هو الذي يضم رواقاً واحداً على جانب واحد أو جانبيين منه (الحبس في قصر اشبيلية) .

وتستخدم العمارة العسكرية للموحدين في الأندلس خطأً مأخوذة من العمارة البوزنطية لم تكن قد عرفت بعد في المغرب ، كالأبواب المقوسة (أسوار بطليوس

وإشبيلية ولبلة) ، وأبواب المدينة الضخمة ،
والأبراج المضلعة (قاصرش وبطليوش وإشبيلية)
والأبراج الخارجة عن الأسوار (قاصرش وبطليوس
وإستجة) . ووصل من الشرق مع المقرنصات الخط
النسخ (زخارف جصية في مورور بغرناطة ، وفي
القصر الصغير بمرسية) خزف مزجج أو مبرنق
استخدم للزخرفة المعمارية من الخارج . وأول
نموذج عرف من ذلك في الأندلس يوجد في برج
الذهب بإشبيلية (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ - ١٢٢١ م) .

وبعد سقوط إمبراطورية الموحدين كانت آخر قاعدة
للمسلمين في أسبانيا هي مملكة غرناطة الصغيرة التي
أسست قبل منتصف القرن السابع الهجري (القرن
الثالث عشر الميلادي) بقليل وقصر الحمراء الذي
يحظى بشهرة عالمية هو وجميع العماثر الأخرى الباقية
تقريباً من هذا العهد الأخير ، وهي لا ترجع الى تاريخ
أقدم من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر
الميلادي) .

والفن الماثور عن بيت بني نصر - أوفن غرناطة - هو

مرحلة أخيرة مشرقة للإسلام في شبه الجزيرة احتفظ
بمركزه الى حد ما على هامش الفن الرسمي لأسرة
الموحدين ، وقد أثراه فن الموحدين وبعض الفنون
المجلوبة من الشرق دون اغفال التغيرات التي طرأت
عليه مع التقدم الجامد للزمن . وهذا الفن يمثل أيضاً في
مظهره الزخرفي احياء التقليد الوطني في استخدام
الزخرفة الكثيفة المسطحة الرقيقة بعد انحراف
الموحدين القصير الأمد عن ذلك ؛ ونحن لا نعرف
مدى انتشار هذا التقليد في الأندلس .

وقد زين صناع غرناطة المهرة الأيام الأخيرة لحضارة
مشرقة على الزوال بأبداع نماذج لما تستطيع أن تأتي به
عبقرية الإنسان وفنه في مجال الزخرفة ، ذلك أنهم
صنعوا بمواد فقيرة هشة كتلاً ضخمة قوية بسيطة
وأجراماً معمارية بحتة مثل برج قمارش وباب العدل في
الحمراء ، وانشاءات لطيفة منسقة تتسم بالأصالة مثل
فناء قصر البركة ، وأروقة داخلية خططت بمهارة مثل
تلك التي رتبت على التدرج من بهو الأسود الى قاعدة

درجة في القصر الملكي بغرناطة ، وقد شيدوا في الوقت نفسه تحصينات أهم من تحصينات الموحدين الأندلسية التي أبقي عليها الزمن . وازدادت غرناطة ثراء بالعمائر العامة ، من دور وقصور منمقة بفن شائق بديع . وكان لكل مبنى - من المساكن المتواضعة الى القصور الملكية التي تكتنف المدينة- أفنيته ونافوراته وأحواضه وأرصفتها المكسوة بالقرميد الزاهي اللون وزخرفته الجصية وسطوحه الخشبية التي ضمت بمهارة .

وفي قصر الحمراء الملكي - الذي احتفظ به على نحو عجيب على الرغم من رهافة بنائه الشديدة - يتجلى فن غرناطة ويكتسب خصائصه المتسمة بالفخامة والعظمة . فهو البركة وبهو الأسود اللذان شيدا في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) هما تطور على الولاء للأنماط ذات الأروقة المعمدة التي أقيمت على جوانب قصيرة ولها سبيلان مستعرضان مما أثر عن عهد المرابطين . وتحدث المقرنصات في قصر الحمراء قبوات مركبة تعطي

المنحنيات الخارجية للعقود وتقوم بدور الحدائر وتغطي وجه بعض التيجان . وفوق الوزرات المصنوعة من اللُّكاط البراق (فسيفساء من القرميد الملون) ، نجد جدران الحجرات قد كسيت بحشوات جصية تبدو كالسجاجيد ، وقد اشتملت هذه الحشوات على وحدات زخرفية نباتية (أوراق منقسمة الى وريقات أصغر حسب تقاليد المرابطين ، وأخرى ناعمة مأخوذة من زخرفة الموحدية) مختلطة برسوم هندسية مركبة ونقوش بالخطين الكوفي والنسخ . وثمة ثروة هائلة من الزخرفة في قصر الحمراء ، بيد أن قلة عدد النقوش البارزة والترتيب المنسق على الجدران داخل الحشوات يتحاشى أي إحساس بزحمة زخرفها زحمة تخل بنسقها ، فالكل متناسق خفيف الظل يسر الناظرين .

وكانت غرناطة في الوقت الذي كانت تقام فيه هذه القصور تثرى ببناء سلسلة من العماثر ذات الشأن : الفندق (Alhondiga Nueva) والمدرسة التي أكملت سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) والمارستان ، أي مصحة

المجانين (٧٦٧ - ٧٦٨ هـ = ١٣٦٥ - ١٣٦٧ م) .
وهذه المباني الثلاثة - ولم يبق منها الا الأول - تطابق
خطط البناء الأجنبية ولكن شكلها يمثل الطراز
المحلي .

وفي النصف الأول من القرن التاسع الهجري
(الخامس عشر الميلادي) الذي يقترن بالاضمحلال
السياسي الأخير لغرناطة نجد فن غرناطة قد عجز عن
التزويد بمدد جديد من شرقي البحر المتوسط وأنهك قواه
النزوع الى الرفاهات واللطائف المعجبة وإن كانت
عقيمة ، ذلك أنه أخذ يكرر نفسه ويعيش في نطاق
الماضي فحسب ، فأصبح بذلك يدور في قالب
فارغ . وظل هذا الفن قائماً في صورته المتحجرة هذه
بالمغرب عدة قرون ، ونكاد نقول إنه لا يزال يعيش
على هذا النحو الى اليوم .

ولقد عمدت التجارة - التي كان معظمها في يد
اليهود والشاميين - الى أن توزع في جميع أرجاء
الأندلس الكثير من المنتجات والفنون الزخرفية
والصناعة المعروفة في الشرق ، وكان نقل عدد منها

يسيراً . وفي عهدِي عبد الرحمن الثاني وابنه هشام الأول ، غلبت نزعة الى الترف الرفيع والبهرج في قرطبة بتأثير بغداد وبوزنطة . وسرعان ما نمت في الأندلس صناعة المنسوجات والمجوهرات ومنتجات العاج والخزف والأثاث . . إلخ ، منتجات تقلد المنتجات المستوردة لإرضاء مطالب الجمهور الغفير من العملاء في بلاد المسلمين والممالك النصرانية في شبه الجزيرة وشمالى جبال البرانس . وكانت النسخة أحياناً مطابقة للأصل مطابقة يصعب معها القول : هل خرجت بعض الأصناف من بلاد واقعة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ام صنعت في الأندلس ؟ ومن المستحيل ، في حالة المشغولات البرونزية المختلفة على النمط الفاطمي ، أن نقطع : هل صنعت في مصر أم في الأندلس . ولا نستطيع أن نقول على وجه اليقين : هل خرجت بعض المصنوعات من مصانع العباسيين أو من مصانع الأندلس الا بعد فحص دقيق كل الدقة .

ولم يهن نشاط المصانع الأندلسية في القرن الخامس

الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، ولكن ذلك حدث في القرن التالي فحسب عندما وضع تزمت الخلفاء الموحدين الأوائل قيماً على ذلك وخاصة فيما يتصل بالمصانع السلطانية . وعلى النقيض من هذا وصلت الحرف الصناعية الى ذروة من التطور والروعة في مملكة غرناطة على الرغم من صغر رقعتها . ولم يقتصر أمر هذه الصناعات على سد حاجات بلاط عرف بالتبذير والاسراف ، بل ان تصدير منتجات أرباب هذه الحرف ساعد على اعانة عدد من السكان كبير كانوا مضطرين الى أداء جزية باهظة الى ملك قشتالة .

وكان الأثاث الديني في الأندلس - ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على الأقل - على درجة من الفخامة والاتقان تفوق التصور . وقد كتب مؤرخ في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) : « إن أمهر أرباب الحرف متفقون في الرأي على أن منابر مسجد قرطبة ومسجد الكتبية في مراكش هي أبدع المنابر على الإطلاق . والمشاركة - كما

يتبين من منشآتهم - ليسوا خبراء في الحفر على الخشب » . وفي رواية للادرسي أن منبر المسجد الجامع في قرطبة لا نظير له في العالم ، وقد صنع في عهد الحكم الثاني . ويوصف بأنه نموذج لا يبارى لفن صنع الأثاث الرفيع المطعم بالعاج والخشب الرقيق .

أما منبر الكتبية ، فقد صنع في قرطبة بين عامي ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) و ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وهو مكسو بزخرفة رقيقة تتألف من أشكال هندسية متشابكة في ألواح مطعمة مكونة من قطع خشبية صغيرة ثمينة ذات ألوان مختلفة تحف بها قشرة رقيقة من العاج ، بينما تملأ المحفورات الخشبية النفيسة الفراغات بين الخطوط الزخرفية المتشابكة .

ومن أعظم الأجداد الفنية للخلافة علب المجوهرات والقوارير المصنوعة من العاج (انظر هذه المادة) التي يجب البحث عن سوابقها في مجال الثقافة البوزنطية . وكانت هذه الأدوات تصنع في مصانع البلاط في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والنصف الأول من

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ،
والتوريقات هي السمة الغالبة في زخرفتها ، على
الرغم من أنه لم يكن هناك نقص في رسوم الحيوانات
والكائنات البشرية التي ترجع أصولها في بلاد ما بين
النهرين الى عهود سابقة على الاسلام .

وكذلك حققت صناعة الخزف تطوراً فريداً في
الأندلس (انظر مادة « الخزف ») ، وكان يصنع في
عهد الخلافة ما يعرف باسم « خزف مدينة الزهراء » أو
« خزف مدينة إلبيرة » ذلك أن عدة نماذج منه وجدت
بين أطلال هاتين المدينتين . وكانت الزخرفة على خلفية
بيضاء تتكون من أشكال مرسومة باللون الأخضر
(أكسيد النحاس) في إطار أسمر داكن (من
المنجنيز) . وهذا الخزف من أصل بوزنطي ، ولكنه
تطور مستقلاً بنفسه في الأندلس .

وورد من العراق وإيران القاشاني الذهبي الثمين ،
وهناك شاهد من القرن الخامس الهجري (الحادي
عشر الميلادي) على صناعته في الأندلس ، ومع ذلك

قد تكون صناعته هناك أقدم من هذا التاريخ . وبلغت الأصول الفنية لهذا الترف أقصى درجات تطورها وكما لها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بإخراج منتجات فريدة في شكلها ونفاستها مثل زهريات ملقا الرائعة التي تفخر بها تلك المتاحف والمقتنيات التي تشمل نماذج نادرة أبقى عليها الزمن . وبعضها لا نجد عليه الا زخرفاً من الذهب ، وفي البعض الآخر تمتزج الزخرفة الذهبية باللون الأزرق . ولدينا كسر من الخزف من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تفصل بين ألوانها أطر من صفائح رقيقة (cuerda seca) يبدو أنها صناعة إسبانية ، ومن جهة أخرى هناك فخار منقوش غير مزجج يبدو أنه لم يظهر الا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

وهناك عدة نماذج من « الديباج » المشهور استوردت من بغداد وهي تدل على أوج ازدهار صناعة الحرير في القرون الوسطى ، وهذه النماذج محفوظة في

أسبانيا . ويرد ذكر أقمشة شامية (sirico) وبوزنطية (Grecisco) في وثائق عديدة عن أسبانيا النصرانية في القرنين الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وهي تدل على أن الأقمشة الفاخرة الصادرة من الشرق قد وصلت الى أسبانيا .

وكان في إشبيلية وقرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مصانع تنتج « الطراز » أي الأقمشة الحريرية والأقمشة المقصبة المصممة خصيصاً لصنع أردية تلبس في الاحتفالات . وكانت الأقمشة والأردية تعد من أثمن الهدايا . وحظيت أنوال المربية بشهرة كبيرة في عهد المرابطين . وفي خلال ذلك العهد كان التقليد الساساني المتبع في الزخرفة لا يزال سارياً ، وكان يتألف من دوائر متماسة وتصاصير لحيوانات منسقة داخلها في تناسب على الأصول الفنية والأسلوب المتبعين في القصبة العباسية . وحرّم ملوك الموحدين « الطراز » واختفت الدائرة آنذاك من

الأقمشة الحريرية ، وحلت محلها زخارف هندسية وزخارف مكونة من خطوط مستقيمة ومنحنية ، ومتوازيات أضلاع وأشكال كثيرة الأضلاع على هيئة نجمة . . . إلخ . وأخيراً حدث منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أن غلبت زخرفة تقوم على شرائط متوازية تحمل عناصر منقوشة وهندسية ، وتعد الأقمشة الحريرية في غرناطة من هذا الطراز .

وقد أشرنا من قبل الى المشغولات البرونزية في عصر الخلافة ، من مصابيح الى ثريات وقناديل وميازيب على هيئة حيوانات ، وهاونات ومواقد للبخور إلخ . . كما أشرنا الى صعوبة إثبات منشئها الأصلي بسبب مشابهتها للمشغولات البرونزية الفاطمية . ويتضح كمال الأصول الفنية للأشغال المعدنية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) من رقائق البرونز المحفورة والمنقوشة التي تغطي الأوراق الخشبية في باب رواق المسجد الكبير بإشبيلية ، ومقارع أبوابه

الفخمة المصنوعة من البرونز المصبوب أو المنقوش التي لا تزال موجودة في نفس البقعة التي صنعت فيها .

وقد احتفظت المتاحف والمقتنيات بنماذج من أساور فضية مطروقة يرجع تاريخ صنعها الى عهد الخلافة .
والأسلوب الفني للطرق أقل شيوعاً في صياغة الذهب التي تغلب فيها المصوغات المزركشة المخرمة وخيوط سلكية تكون تركيبات مرصعة بالأحجار الكريمة أو قطع الزجاج ، وهذا الأسلوب الفني بقي حتى الأيام الأخيرة في مملكة غرناطة ، وهناك عدة سيوف من هذا الطراز مثل سيف ابي عبد الله المحفوظ في المتحف الحربي بمدريد ، وهو رائعة من روائع الصياغة يتميز برشاقة متناهية ، مقبضه مصنوع من العاج ومطليّ بالفضة المذهبة وفيه زخرفة تقوم على الصياغة المزركشة ، والتطعيم بالmina الكثيرة الألوان المثبتة في إطارات .

[ل . تورس بالباس L . Torres Balbas

تاسعاً - الأدب والثقافة الأندلسيان

١- تعد العربية الأندلسية التي يتحدث بها الناس في شبه جزيرة إيبيريا أفضل اللهجات العربية التي جاءت بعد اللغة الفصحى بالنسبة لفترة القرون الوسطى . وفي تاريخ متقدم يرجع الى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كتب العالم اللغوي الزبيدي الاشبيلي رسالة عن أخطاء الكلام التي يقع فيها العامة بالأندلس .

وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) نظم ابن قُزَّمان (انظر هذه المادة) بعض أزجال (انظر هذه المادة) حافلة بالفوائد اللغوية والاجتماعية ، وقد بقي الجانب الأكبر منها ، كما نظم المتصوف الشستري (انظر هذه المادة) أزجالاً يعرف

الناس منها دواوين عديدة . ومما يؤسف له أن طبيعة الموضوعات التي تناولتها هذه الأزجال المنظمومة باللهجة الدارجة تدل على أنها أقل أهمية من الموضوعات التي تناولها الزجال السابق . وفي منتصف القرن الثالث عشر ايضاً أدت إعادة غزو النصارى لمملكة بلنسية ومتطلبات الدعوة الدينية بين السكان المسلمين الى وضع مفردات لغوية كثيرة لا يعرف من ابتدعها ، وذلك باللغتين العربية واللاتينية ، واللغتين اللاتينية والعربية ، وقد نشرت هذه المفردات . وفي نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) أدت إعادة غزو مملكة غرناطة الى أن يجمع الراهب پدرو دي ألكالا بدوره شعراً ومفردات لغوية ، وقدم المفردات العربية في نسخة مكتوبة بالحروف الرومانية ، وهذا المصنف الأخير قيم بصفة خاصة ، ولكن النصوص المنثورة من هذا الشعر مخطئة في كثير من الأحيان .

وهذه هي المصادر الأساسية الوحيدة ، ومع ذلك

توجد مصادر ثانوية كثيرة وهي : ناظمو أزجال أقل من هؤلاء شأناً ، وعدة « خرجات » من الموسّحات (انظر هذه المادة) . أما بالنسبة للنثر فهناك وثائق في المحفوظات ورسائل خاصة وقوائم حسابية إلخ وأخيراً يشير مصنفو الكتب الفنية المحررة باللغة العربية الفصحى فيما يتعلق بالمفردات اللغوية الى أسماء عديدة باللهجة الدارجة : وهم مؤرخون وجغرافيون وأطباء وعلماء نبات وعلماء زراعة ، ومصنفون في الحسبة . . . إلخ .

وثمة مبرر للافتراض بأن العربية الأندلسية لا بد ان تكون قد خرجت من عداد اللغات الحية حوالي نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ولعل تاريخ زوالها يختلف باختلاف الولايات . وعلى أية حال فإن العرب الأندلسيين الذين اخرجوا من أسبانيا ووصلوا الى تونس ومراكش حوالي عام ١٦١٠ كّفوا ، فيما يبدو ، عن الحديث باللغة العربية وأخذوا يتحدثون باللغة الأسبانية . ومن ثم تكون الفترة التي

كان الناس فيها يتحدثون بالعربية في شبه جزيرة إيبيريا
قد استمرت ثمانية قرون . وهذه المدة الطويلة ، مع
تقسيم البلاد الى وحدات طبيعية وسياسية منفصلة ،
الى جانب اختلاف طبائع السكان العرب ، كل هذا
كان حرياً فيما يبدو بأن يساعد على تكوين لهجات عربية
قائمة بذاتها كما حدث داخل إطار اللغة الرومانية ،
ولكن الظاهر أن هذا لم يحدث . حقاً إن الوثائق التي
في حوزتنا متباينة من حيث الزمن والمكان ، وهي لهذا
تقف حجر عثرة في طريق عقد أي مقارنة تستحق
الجدد . وليس في الامكان القيام بأثر من محاولة التمييز
بين لهجات الجنوب (اشبيلية وقرطبة وغرناطة)
ولهجات الشرق (بلنسية ومرسية) ولهجات الثغور
(أراغون) . وليس في حوزتنا فيما يختص بطليطلة الا
وثائق تسجيلية مدبجة في صيغة متخلفة أشد التخلف
من اللغة الفصحى .

وصفوة القول ان العربية الأندلسية ، بقدر ما
نستطيع أن نقول ، قد احتفظت فيما يظهر بدرجة عالية

من التجانس . ولكن يجب الا ننسى ان وثائقنا الوحيدة
ترتبط بلهجات أهالي المدن ، ومن المحتمل أن
اللهجات الريفية- التي يتحدثها الناس الذين كانوا أقل
نزوعاً الى التنقل من سكان المدن - قد تكون أكثر
تفاوتاً .

وعلى الرغم من أن العربية الأندلسية قد اندثرت
حوالي نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر
الميلادي) من حيث هي لغة حديث ، فإنها بقيت في
القصائد التي لا تزال تستخدم « كلمات » للألحان
الأندلسية التي يعزفها ويغنيها سكان المدن من تونس
الى مراكش .

(٢) الخصائص العامة :

١ - الصوتيات الحروف الساكنة

كما هو الحال في جميع اللهجات التي جاءت بعد اللغة الفصحى ، يمثل الحرف الجانبي (ض) صوتياً بحرف (ظ) او استثناءً بحرف (د) . وبقيت الحروف التي تنطق من بين الثنايا : ت ، د ، ذ ، - حتى أواخر القرن الخامس عشر على الأقل - غرناطية . ويظهر أن حرف ج كان أصلاً حرفاً احتكاكياً ج = ز ، وفي ابن قزمان ومفردات بلنسية لا تدعم أداة التعريف ، أما في مفردات غرناطة فتدغم ، وهي في

هذه الحالة يمكن أن تطابق النطق بحرف « ث » أو مع
ترقيق العنصر الإطباقى الأول . وفيما يختص بحرف
القاف هناك شاهد على وجود « قاف مرققة » في النطق
الأسباني ، ولكننا لا نعرف بالضبط ماهية هذا
« الترقيق » . وإلى جانب الحروف الساكنة في العربية
الفصحى توجد في العربية الأندلسية الحروف التالية ،
وهي عادة في الكلمات المستعارة من اللغة الرومانية (أو
تطورات من الطبقة الدنيا) : حرفا پ و چ اللذان
يكتبان بالعربية على التعاقب بّ و جّ ، وحرف G
(روماني قديم أو إيبيري قوطي غربي) يرسم : غ ،
وهذا يخلق مشكلة لعلماء اللغة الرومانية . وهناك نزعة
تستحق الذكر ، تلاحظ بصفة خاصة في حرف ج ، إذ
يحذف حرف ن الأخير بعد حرفي « أي » مثل : ين =
« أين ؟ » ، وبى = « بين » ، وشهري ، أي
« شهرين » .

الحروف المتحركة :

الحركات : يجب أن نتظر رسم حرف ج في

الحروف الرومانية لكي نكوّن فكرة عن التغيرات
الطفيفة في نظام الحركات: الفتحة تتحول الى إمالة e/a
والكسرة تخفف : e/i والضمة تخفف : o/u .
وتحكمها طبيعة الحروف الساكنة السابقة أو التالية .
وهذا هو الموقف اليوم الى حد كبير في اللهجة المغربية .

وكانت الحركات في المقاطع المفتوحة ثابتة نسبياً حتى
نهاية القرن الخامس عشر . والحركة الوحيدة التي
تعرضت للحذف هي الحركة التي تحدث في المقطع
الثاني من مقطعين مفتوحين داخليين : (يتكلم
ويتخاصموا ودخلت) . وحركة الفتحة هي الغالبة
بين الحركات . والحركة الغالبة في الأسماء هي حركة
الفتحة الممالة مهما كانت طبيعة الحرف المتحرك المشدد
السابق . وهي أيضاً الحركة في المقطع الأول من أسماء
الآلة من الوزن القديم مفعّل وحركة المقطع الأخير في
صيغ التصغير . وفي الأفعال تظهر الفتحة في بداية فعل
الأمر لضمير المتكلم : أكتب ! وفي بداية الأفعال
المعتلة في صيغ الخماسي والسُداسي والسُباعي والثُماني

والمكوّن من عشرة حروف . وبالقّياس الى التلفظ في
الأفعال الصحيحة تظهر هذه الخصيصة أيضاً في
الأفعال المعتلة من كل الصيغ المشتقة (ما عدا الثلاثي
أحياناً) وفي صيغتي الرباعي على السواء . ويبدو أن
كثيراً من الحركات (غير ممدودة ودائماً غير مشدّدة)
تفصل مجموعات الحروف الساكنة التي يصعب
نطقها ، وهذه المجموعة قد تكون ابتدائية (وهي
عملية معروفة في اللغة العربية الفصحى) مثل
أفْرَنْطال بمعنى « أمامي » أو نهائية مثل : « كتبت -
لك » يضاف الى هذا في الشعر أن حركة فاصلة تظهر
بكثرة بعد كلمة تنتهي بالحروف CVC وتتلوها كلمة تبدأ
بحرف ساكن . ويمكن أن تكون داخلية كما يحدث في
حالة أسماء من نوع راف ر التي يكون فيها حرف
ر إما ر أو ل أو ن أو م أو ب أو همزة مثل « عَقْل »
للعقل ؛ و « عَجَل » للعجل ، و « شُغْل »
للشغل ، و « رَطَب » للرطب ، و « حُمَر » للأحمر
زُهْر لابن زُهْر .

الحروف الممدودة : يميل تتالي حرفي المد الألف والواو ، في الأسماء إلى أن يصبح أي وأو . وحرف الألف الممدودة إذا لم يدعمه حرف ساكن يميل الى أن يصبح من الحروف الحلقية . والمرحلة التي وصل اليها عن تقبل شديدهي الفتحة الممالة الممدودة ، ويستخدم حرف الألف العربي بانتظام في « الخميادو » ليرسم حركة الحرف الروماني المتحرك e. وفي مفردات غرناطة يحتفظ بهذا النطق الأخير لحركة الألف الممدودة في المفردات اللغوية المدونة . وفي الكلمات (من غير الأفعال) التي تعد من المفردات اللغوية الدارجة يصل النطق اللهوي الأقصى الى الياء الممدودة في « بيب » بمعنى باب إذ تكتب هذه الكلمة بالياء وليس بالألف .

حروف العلة المدغمة : لا تزال حروف العلة المدغمة أي ai أو au باقية في صيغها الصحيحة فيما عدا بعض كلمات الوصل : كَفْ ، كَفْ = كَيْفَ ؛ لِسْ ، لَسْ = لَيْسَ .

الشكلة : لا نعرف هذه الا فيما يتعلق بالقرن

الخامس عشر ، نتيجة للتعليقات التي قام بها ب . دي
ألكالا P . de Alcalá وجمعها ودرسها أ . شتيكر A. Stiger .
وتبين عدة مخطوطات غرناطية مكتوبة بالحروف
العربية أن الحركات في المقاطع المفتوحة تصبح حروفاً
ممدودة بفعل تشديد الشكلة .

ب - الصرف :

الفعل : لا يوجد ضمير المخاطبة للمؤنث . وفي
الزمن التام نجد أن الكاسعة التي تدل على ضمير
المخاطبين هي : تُم . وفي الفعل الناقص تكون
ضمائر المتكلم على وزن نكتب - نكتب . وفي ضميري
المتكلم والمخاطب للفعل التام نجد أن الأفعال
« المضعفة » في صيغة ضمير المتكلم تتبع التصريف
القديم : « حَلَلْتُ أَي فَتَحْتُ » . وفي حالة الفعل
المتضمن حرف « ر » المرقق يكون الجمع الناقص
على وزن « يمسوا » أي يخرجوا و « يلتقوا » أي
يتقابلوا . وفي الصيغ المشتقة التي تشمل ضمير
المخاطب تكون صيغة الفعل الناقص بالألف مثل

صيغة التام . وقد ثبت استخدام المبني للمجهول مع
تغيير الحركة ، ولكن هذا لا يحدث إلا في صيغة
المتكلم ، وأحياناً يحاكى بالسباعي . وبينما نجد أن
معظم اللهجات التي استقرت فعلاً قد ابتدعت صيغة
للمضارع الدال على الحاضر ، فإن العربية الأندلسية
قد أبدعت مضارعاً عارضاً يقوم أيضاً بوظيفة صيغة
شرط لم يتحقق (بعد جملة اعتراضية بلو) وصيغة
تمن ، ويتكون من الفعل الناقص مسبقاً بكلمة كن
(وفي مفردات غرناطة : كِنْ) التي يسكن آخرها
والتي فيها يدغم حرف النون الأخير عادة بفعل الحرفين
المزيدين ت ، ي .

والتفعيلات الخاصة بالفعل الصحيح لصيغ
الخماسي والسادسي هي أَتَفَعَّلُ وَأَتَفَاعَلُ ، وهي مشتقة
على نحو فرعي من الفعلين المعديز يتفَعَّلُ ويتفَاعَلُ .
ولدينا على الأساس نفسه أَتَفَعَّلُ بالنسبة لصيغة
المخاطب في الرباعي . ويلاحظ في هذه الصيغ أن
حرف الزيادة ت لا يدغم في المخارج المطبقة من بين

الثانيا فحسب ، بل يدغم أيضاً في حروف الصفير :
س ، ز ، ش . وفي الحرفين الاحتكاكين : س ،
ج . وتستخدم في الجملة الاسمية حروف وصل مختلفة
للنفي مشتقة من الحروف القديمة كَيْس ، لَسْ ،
لِس ، إِس ، وإِس المستعملة في مفردات غرناطة
وأخيراً يبدو أن استعمال الكاسعة « شي » لتأكيد
الاستفهام أو النفي غير معزوف .

الأسماء : توجد في الواقع أداة للتذكير مثل « وُحد
الفرس » أي « فرس ما » ، وواضح أن المثنى
مهجور ، وهو لا يستعمل إلا في أجزاء الجسم التي
توجد أزواجاً وفي الكلمات التي تعبر عن القياس .
وصيغ الجموع أَفْعَلْ وَأَفْعِلَةٌ هي التي تستعمل عادة .
أما صيغة مفاعيل فلا تستعمل إلا مع كل مفرد يكون
الحرف المتحرك الثاني فيه ممدوداً . وتصغير الكلمات
الثلاثية التي لا يكون فيها الحرف الأوسط أو الأخير
ممدوداً يكون على وزن فُعَيْلْ مثل « كُليَّب » أي الكلب
الصغير (مذكر) ولكن يقال « كُليَّبة » للكلبة
الصغيرة (مؤنث) . وفي حالة التركيب تؤ ول نهاية

الكلمة وهي الفتحة الى أت .

الأعداد : بالنسبة لرقم « ٢ » نجد كلمة « زوج »
يتبعها الجمع . وتحفظ الأعداد من رقم ١١ إلى ١٩ في
حالتها المطلقة بالنهاية - أر .

الصفات : يلاحظ في اللهجة الغرناطية أن تصغير
اسم على وزن فُعَيْعَل يصاغ للنعوت التي على وزني
كبير وأحمر .

الضمائر : ضمير المخاطب المفرد يكون بصيغ
أنت ، أَتْ ، أَتْ ، وضمير الغائب له صيغ مختصرة
هي : هُوَ ، هِيَ ، هُمُ ، وهي تؤدي في الغالب
وظيفة حروف الوصل في الجملة الاسمية . ومن جهة
أخرى توجد الصيغ الممدودة : هُوْتُ ، هِيْتُ ، هُمْتُ
(صيغ للتوكيد) . وبالنسبة لضمير المتكلمين هناك
كثير من الصيغ المختلفة : نَحْنُ ، نَحْنُ ، نَحْنُ في
مفردات بلنسية ، وأَحْنُ ، حَنْ ، حِنْ في مفردات
غرناطة . والضمائر المنعكسة على صيغة أنا أنْسِي « أنا
نفسى » وربما تؤدي كلمة نفسى . ونجد آثاراً

للكاسعة - أه في ضمير الغائبة (بعد حرف ساكن) .

الاسماء الموصولة : أكثرها استعمالاً هو « السذي » وهو مبني . ونجده أحياناً يظهر في صورة « أدّي » ابتداءً من أزجال ابن قزمان ، وهو يرد في مفردات غرناطة ، وبصيغة غامضة هي ألّي ، ويحدث أن نجد بين اسم نكرة وبين صفة أو جملة (اسمية وفعلية) تصف هذا الاسم أداة وصل مبنية : « أن » وقد يكون لهذا ارتباط بالتنوين القديم في استعمال متطور جداً : « لحية - أن بيظه » أي : لحية بيضاء ؛ و « عينان - أن سود » أي : عينان سوداوان ؛ و « حواجب - أن رقاق » أي حواجب رقيقة ؛ و « كَلِمَتْ - أن فيها قاف » أي كلمة فيها حرف قاف ؛ و « قِط - أن مَذا - ل » أي قطعة ضاعت مني ؛ و « وقت - أن تُذكر » أي في اللحظة التي يُذكر فيها اسمك .

ح - حروف الجر : تستخدم كلمة مَتَاع / مِتَاع حرف جر يدخل ، في الاعراب ، على المفعول المعرف (اسماً أو ضميراً) عندما تبدو الاضافة قبيحة . وتوجد

الصيغة المختصرة { مَتَى / مَتَى } أي متى بين اسمين . ويستعمل حرف الجر « مع » للتعبير عن معنى يطابق معنى الفعل « يملك » . ويصبح هذا الحرف قبل الكاسعات الشخصية التي تبدأ بحرف متحرك ؛ ماع - : « ماعَ قِطَاع » أي عنده مال . أما حرف الجر « ذ » الذي يصادفه المسرء غير قليل في النصوص الطليطلية فهو مجرد حرف منقول عن حرف الجر de في اللغة الرومانية .

كلمات وصل نحوية : يجب ملاحظة ما يأتي :

« أشحال ؟ » أي كم ؟ ؛ و « بَحَال » أي مثل ؛ و « ذاب » أي الآن ؛ و « حُرْمَه ف أش » أي ما السبب ؟ و « مَكاي » أي على أية حال ، أو على الأقل ؛ و « يَدَا » بمعنى أيضاً أو كذلك ؛ و « نَعْمه » و « سَرَف » و « أَكْداس » ، أي جداً أو كثيراً ؛ و « شُويّ » أي قليلاً ؛ و « فَوَات » أي متأخراً ؛ و « إَكَان » أي إذا (للدلالة على إن كان) و يَاعَلَا ... أي إن شاء الله . . . (أَتَنَم) .

د - مفردات :

نوجه النظر الى ما يأتي فحسب : « دَقَام » أي
فَم ؛ و « أَجَّ » أي وجه ؛ والجمع « قِطَاع » أي نقود
فضية ؛ و « وَلَدَ » أي والد ؛ « وَمُقَارِبَ » أي فقير أو
سيء ؛ و « أَكْحَلَ » أي أسود .

ج . بس . كولان

. G . S . Colin

الفهرس

٩	المقدمة
١٦	الأندلس
٣٩	تعليقات على مادة « الأندلس »
٥٨	معنى التسمية الاصطلاحية للفظ الاندلس
٦١	إلمامة بجغرافيتها
٦٩	معالم الجغرافية التاريخية للأندلس
٨٧	- سكان الأندلس
٩٨	تطور الأندلس
١٠٥	المامة عامة بتاريخ الاندلس
١٠٧	- فتح الأندلس
١١١	تاريخ الاندلس حتى استعادة المروانيين للمخلافة
١١٣	بيان بولاة الاندلس
١١٧	المملكة المروانية من قرطبة
١١٨	بيان بأمراء الاندلس

١٢٢	الخلافة والحكم العامري المطلق
١٢٦	انهيار الخلافة المروانية
١٢٨	بيان بآخر الخلفاء في قرطبة
١٣٠	الخلفاء الحموديون
١٣١	مملكة الطوائف
١٣٤	الأندلس في عصر المرابطين
١٣٦	الأندلس في عهد الموحيدين
١٣٨	المملكة النصرية في غرناطة
١٤١	ملحق : الأندلس في شمال افريقية
١٤٦	→ الاسلام في الاندلس
١٤٩	الفن الاندلسي
١٥٣	العمارة
١٨٤	الادب والثقافة الاندلسيان
١٨٩	الخصائص العامة
١٨٩	١ - الصوتيات - الحروف الساكنة
١٩٤	ب - الصرف

كتب دائرة المعارف الإسلامية

- | | |
|------------------------|----------------------------|
| ١- أفتانستات | ٨- الجغرافية عند المسلمين |
| ٢- أندلس | ٩- أفلاطون |
| ٣- البندو | تصور الآدمر والحدود |
| ٤- علم التاريخ | ونظرة المسلمين إلى الفلسفة |
| ٥- أصول الفقه الإسلامي | ١٠- الجريدة والصحافة |
| ٦- البرج في العمارة | عند المسلمين |
| الإسلامية الحربية | ١١- ألف ليلة وليلة |
| ٧- تفسير القرآن الكريم | وتتبع .. |
| نشأة - ترجمه - نظره | |